دراسة القضايا النسائية في رواية " حكايتي شرح يطول" لـ حنان الشيخ

Dirasatun li “Al Qadhaya Al Nesaiyyah fi Rewayah “HikayatiSharhunYatool” le Hanan Al Sheikh (A Study of Women’s issues in the novel “HikayatiSharhunYatool” by Hanan Al-sheikh)

بحث جامعيلنيل شهادة ما قبل الدكتوراة

إعداد و تقديم

محمد دانش

تحت إشراف

الدكتور محمد قطب الدين

مركز الدراسات العربية والإفريقية

كلية دراسات اللغة و الأدب و الثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي-110067

2016م

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

24th July, 2016

DECLARATION

I declare that the dissertation entitled **"A Study of Women's issues in the novel "Hikayati Sharhun Yatool" by Hanan Al-sheikh"** submitted by me is in the partial fulfillment of the requirements of the award of the degree of Master of Philosophy of this university. The dissertation is original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University partially or fully.

MD DANISH

(RESEARCH SCHOLAR)

CERTIFICATE

We recommend that this dissertation be placed before the examiners for evaluation.

Dr. MD QUTBUDDIN

(SUPERVISOR)

CAAS / SLL&CS / JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. RIZWANUR RAHMAN

(CHAIRPERSON)

CAAS / SLL&CS / JNU

Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -110067

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله و الصلاة و السلام على عباده الذين اصطفى،

قطعت الرواية العربية شوطا طويلا و حققت إنجازات عظيمة جعلت العالم تعترف بسمو قيمتها و علو شأنها، و قد تألق نجمها في سماء الشهرة بعد فوز الروائي العبقري نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب لإسهاماته القيمة في الرواية العربية عام 1988م. و هي لا تزال تنمو و تزدهر بشكل ملحوظ بأنها أصبحت أن تكون تصويرا صاداق لذلك المجتمع أو البلاد أو تلك المدينة. و السبب الرئيسي وراء تطور هذا الفن هو انفتاح الدولة العربية على العالم وانتشار التعليم فيها والتقدم الاقتصادي و العلمي و التكنولوجي الكبير الذي حققته معظم الدول العربية. تعد الرواية من أكثر الفنون الأدبية اتصالا بالمجتمع إذ تعبر عن مشكلاته و همومه وتعطي المجال للبوح والاسترسال والوصف والتقصي، و كذلك كانت الرواية وسيلة لاستجلاء صورة المرأة التي تعبر عن تغير المجمتع، و بالتالي يمكن استخدام صورة المرأة بوصفها أداة فنية لرصد و تتبع وعي المجتمع و عرض قضاياه، فهي الوحيدة القادرة على ذلك بعكس صورة الرجل التي تدل غالبا على الفردية.

هناك كثير من الكتاب في العالم العربي الذين ساهموا في معالجة القضايا الاجتماعية عن طريق الرواية، و عدد منهم تناولوا قضية المرأة بطرق أحسن و كافحوا لحقوق المرأة وتحريرها و حريتها ثم تكاتفت معهم عدة ناشطات و كاتبات اللاتي تقبلن بمسؤوليتهن لتوعية المرأة العربية و من سلستها ولدت حنان الشيخ 12 نوفمبر عام 1945 في بيروت، و طلعت

على مشهد الكتابة في الستينات و حتى ذلك الحين كان المجتمع العربي قد تغير تغيرا جذريا، إثر محاولات التحديث و التعصير و الإصلاح، و هناك عدة كاتبات نساء في العالم العربي وناشطين في حقوق المرأة قد حاولوا في مجال كفاح لحقوق المرأة و قضاياها و تحريرها. وحنان الشيخ لما تمتاز به من جرأة في العرض فهي تطرح موضوعات في غاية الدقة عن عالم المرأة الذي يستحيل أن يطرحه كاتب رجل بالدقة، و الشيء الذي يميز حنان الشيخ هو الجرأة البيانية التي أظهرتها في رواياتها، فلم تخش فيها من لومة لائم و أزاحت الستار عن قضايا المرأة بصورةعامة و قضايا المرأة الاجتماعية و قضية التمرد و الحرية و الجنس بصورة خاصة، و بعد قرأة رواية الشيخ أول ما يتبادر إلى الذهن أنها تتحدى المجتمع الشرقي التقيلدي، وربما تتطرق إلى مسألة دور الدين في حياة الإنسان العربي العاطفية والجنسية في قالب و أسلوب مبالغ فيهما، وبالتالي، تنطرح اسئلة عديدة ازاء هذا الأمر: أكانت الشيخ تتحدى تربية وقيم الرجل العربي المسلم إزاء علاقته الحميمة بالمرأة وتحاول أن تحرره لكي يكتشف نفسه ويعيش حياته الخاصة بحرية، متجاوزا أي عقائدية متحدرة أو هل سعت الشيخ إلى وصف التفاعل بين الحياة في مجتمع شرقي محافظ مع العيش في مجتمع غربي متحرر للفتاة العربية المهاجرة؟ كأن حنان الشيخ كاتبة متحررة ترفض الواقع الذي تعيش فيه المرأة العربية وهي تكتب بلا رقابة وبجرأة متخطية الأعراف والتقاليد كاشفة التأخر والجهل السائدين في العالم العربي. و حنان الشيخ يتناول في رواياته و قصصه المجتمع اللبناني الإسلامي غير أنها تسكن بعيدة منها آلاف ميل، لكن هذا البعد لم يكن صادا عن الشعور بألم المرأة و قضاياه في وطنها. وفي حكاية أمها "حكايتي شرح يطول" هي تصرح كيف استمدت أمها الجرأة من المحنة و البلاء التي واجهتها منذ الطفولة و استمرت حتى بلوغها و هي تمردت على التقاليد وتغلبت على تلك المحن والبلايا كأنها تدعو المرأة بمجابهة المجتمع الذكوري و كتابة قدرها بيدها و التمتع بحياتها حسب رغبتها و لا تقعد خائفة من عراقيل الحياة.

و هذا و قد قسمت البحث في مقدمة و ثلاثة أبواب و خاتمة

الباب الأول و قسمته في فصلين، في الفصل الأول تناولت أحوال لبنان في القرن العشرين من بدايته بالتركيز الخاص على تطور الأدب العربي الحديث و فنونه في لبنان، بالإشارة إلى الحركات الإصلاحية و أعمال الكاتبات العربية و إسهاماتها في مجال القضايا النسائية العربية، و في الفصل الثاني تناولت حياة و نشاطات و أعمال حنان الشيخ.

و في الباب الثاني، تناولت القضايا النسائية في الرواية مقسما إياه إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول يتناول قضية الزواج و الطلاق، و الباب الثاني يتناول قضية التمرد و حرية المرأة والباب الثالث يتناول قضية التعليم للمرأة.

و في الباب الثالث قمت بتحليل رواية "حكايتي شرح يطول" و مقسما إياه إلى فصلين، الفصل الأول يتناول الفكرة الرئيسية للرواية و الفصل الثاني يتناول المنهج الفني للرواية.

و في خاتمة البحث أذكر ملخص النتيجة التي وصلت إليها عن طريق هذا البحث

و قبل الختام أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لكل من ساعدني عن طريق المواد و النصائح الثمينة في إعداد هذا البحث و خاصة لأستاذي و مشرفي الدكتور محمد قطب الدين لعنايته الخاصة و ملاحظاته القيمة التي تغني البحث، و أتقدم بخالص المودة و الاحترام لأصدقائي الباحثين محمد واثق حسين و أياز أحمد و محمد علي أختر و آفاق عالم و الدكتور قمر شعبان و الدكتور نجم الدين الذين ساعدوني بمشاورهم الغالية و بتوفير بعض المراجع و الأبحاث. و كذلك أشكرجميع أصدقائي و زملائي و أفراد عائلتي الذين زودوني بدعم معنوي.

محمد دانش

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

2016/07/24

الباب الأول

الفصل الأول: عصر حنان الشيخ

الفصل الثاني: مولدها و نشأتها و مؤلفاتها و أعمالها الأدبية

الفصل الأول

عصر حنان الشيخ

يتمتع لبنان بموقع استراتيجي مهم من الساحل، والجبل، و له تكوينات اجتماعية متميزة ففيه تركيبة مذهبية و طائفية معقدة لا بد أن يحسب حسابها في كل المسائل التي تواجهها البلاد. ولسكان لبنان بسبب هذه التركيبة احتكاكات و صلات بالدول الأوروبية مثل فرنسا، و إيطاليا وروسيا وغيرها.

قد حكم العثمانيون على لبنان من عام 1516 إلى نهاية الحرب العالمية الأولى 1918، قد تأزم الوضع الداخلي في لبنان في أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914م و تأزم الموقف المالي فيه بسبب الحرب و انقطاع تدفق الأموال عليه من قبل رعاياه في المهجر. وساءت علاقة الدولة العثمانية بأهالي لبنان خاصة بعد نمو فكرة العروبة، و مع ضعف الدولة العثمانية برزت فكر ة القومية العربية، والحركة الوطنية العربية المناهضة للحكم العثماني في بلاد الشام، و قد تجلى هذا المفهوم الفكري الرامي إلى إحياء العروبة من خلال حركة إحياء اللغة العربية و الأدب العربي و التاريخ العربي و محاولة إحياء التراث العربي برمته. وقد تعمق هذا الفكر العربي و توسع في بلاد الشام في أعقاب بروز الق.

ومية الطورانية التركية التي حمل لواءها أتباع جميعة الاتحاد والترقي، فكان نمو الفكر العربي و تعمقه ردة فعل للاتجاه التركي المتعصب الذي ركز على تعزيز سياسة التتريك والإضرار بالعرب. قد نشط الفكر العربي في بلاد الشام من خلال كتابات اليازجي والبستاني هما طليعة رواد الفكرة العربية. و طبيعي أن الأهالي في لبنان لم يكونوا بمعزل عن تلك الأحداث، خاصة و أن التعليم قد انتشر و حدث مع تفتح في الوعي لدى الشعب العربي في بلاد الشام بسبب التعرف على تيارات الغرب.

انسحب الأتراك من بلاد الشام (سوريا، لبنان و فلسطين) بعد انتصار دول الوفاق في الحرب العالمية الأولى على دول الوسط، و دخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق و أقام في بلاد الشام حكومة عربية منهيا الوجود العثماني فيها، و هكذا رفع علم الحكومة العربية في بيروت وذلك في 6 أكتوبر 1918م.

فبعد الحرب العالمية الأولى وخروج العثمانيين من لبنان وباقي المنطقة العربية وقعت لبنان تحت الانتداب الفرنسي بناء على مقررات مؤتمر سان ريمو الموقع في أبريل عام 1920م، وقسمت بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام هي: سوريا و لبنان و فلسطين. وعهد بالانتداب على سوريا ولبنان، و عهد إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين و العراق بمافيها الموصل، وذلك بناء على مخططات معاهدة سايكس – بيكو عام 1916م.

رفضت فرنسا قيام حكومة عربية بزعامة الأمير فيصل بدمشق و طالب الجنرال الفرنسي غورو في 14 يوليو 1920م من فيصل بن الحسين بقبول الانتداب الفرنسي فورا، و إلغاء قانون التجنيد الإجباري، و تسريح الجيش العربي و رغم قبوله هذه الشروط تقدمت القوات الفرنسية نحو دمشق و احتلتها بالقوة بعد موقعة ميسلون في 25 يوليو 1920م. ثم تقدمت القوات . الفرنسية و احتلت لبنان و عين جورج بيكو مفوضا ساميا على لبنان يتمتع بكل الصلاحيات السياسية والإدارية.

لبنان والحرب العالمية الثانية

هزمت فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية أمام قوات ألمانيا، و تشكلت حكومة فرنسية موالية للألمان، فأصبحت أكثر المستعمرات الفرنسية و مراكز النفوذ الفرنسي و منها سوريا و لبنان تحت سيادة حكومة فيشي. أرسلت حكومة فيشي إلى سوريا و لبنان مندوبا ساميا ليعمل على إدارة البلاد و سياستها في ظل الحكومة الفرنسية.

و لم يدم حكم حكومة فيشي طويلا، إذ تمكنت القوات الفرنسية الحرة التي يتزعمها الجنرال ديجول و معها القوات البريطانية من دخول بلاد الشام و إسقاط الوضع القائم فيها، ازداد الوضع سوءا امام الفيشيين وقلت امداداتهم العسكرية و وتقلص اهتمام هتلر بجبهة الشرق الأوسط. اضطر الفيشيون ان يقبلوا بشروط الحلفاء والاستسلام في 8 تموز 1941 حيث جرت مفاوضات بين الجانبين "الانكليز والفيشيين" في عكا انتهت بتوقيع اتفاقية الهدنة التي قضت بإنسحاب الفيشيين من لبنان وسوريا و عين الحلفاء الجنرال كاترو مندوبا ساميا جديدا على سوريا و لبنان. و قد أذاع الذي كان يمثل حركة فرنسا الحرة بيانا وعد فيه اللبنانيين و السوريين بالاستقلال. وقد حاول الفرنسيون الإبطاء في الإعلان عن الاستقلال التام. لكن الشعبين السوري و اللبناني أصرا على ذلك، فاضطر الفرنسيون إلى إعلان استقلال لبنان و سوريا عام 1941م..

بعد ذلك تسلم الفرنسيون السلطة في لبنان وسوريا وتولى الجنرال كاترو سلطة المفوض بصفة مندوب عام لفرنسا الحرة. كان الجنرال كاترو قد وعد اللبنانيين بالاستقلال في بيانه المؤرخ في 8 حزيران 1941 قبل بدء الحملة العسكرية. الا ان

واعلن الأستقلال في 22 تشرين الثاني 1943 واطلق المعتقلون وتم الاعتراف به في 1 كانون الثاني1944 وتم جلاء القوات الفرنسية في 31 كانون الأول 1946 وفي العام 1945 انتسب لبنان الى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة،

بدأ لبنان يطور اقتصادياته بوساطة إقامة المشروعات الزراعية والصناعية و تطوير المرافق السياحية كما أن لبنان عمل على تنشيط الحركة التجارية فيه.

كما اهتم لبنان ببناء جيش وطني للدفاع عن استقلاله و قد شاركت قوات من الجيش اللبناني مع الجيوش العربية الأخرى في الحرب العربية – الإسرائيلية عام 1948م

تميز تاريخ لبنان منذ الاستقلال بتقلبات سياسية متكررة

و كانت الظروف عادية والحكومة اللبنانية كانت تحاول استرجاع الأمن والسلام و توطيد الاقتصاد و الأحوال المدنية، لكن بسوء حظ وقعت خلافات دموية بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين عام 1969م و حدثت بين الطرفين اصطدامات عسكرية، و كان ذلك في عهد رئاسة شارل الحلو، و في عهد الرئيس إلياس سركيس دخلت قوات الردع العربية لبنان من أجل إنهاء الخلافات بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطيين في الجنوب اللبناني.

بدأت الحرب الأهلية اللبنانية في عام 1975 هي حرب دموية وصراع معقد دامت لاكثر من 16 عاما و 7 أشهر في لبنان (13 أبريل 1975 - 13 أكتوبر 1990)، لتوقع أكثر من 150 ألف قتيل وأكثر من20 ألف مفقود وتشريد مئات الآلاف من اللبنانيين على مختلف طوائفهم ومذاهبهم وتعود جذوره للصراعات والتنازلات السياسية في فترة الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا[بحاجة لمصدر]، وعاد ليثور بسبب التغير السكاني (الديمغرافي) في لبنان والنزاع الديني الإسلامي - المسيحي والدرزي ، وكذلك التقارب مع سوريا وإسرائيل. وقد حصل توقف قصير للمعارك عام 1976 لانعقاد القمة العربية ثم عاد الصراع الأهلي ليستكمل وعاد ليتركز القتال في جنوب لبنان بشكل أساسي، والذي سيطرت عليه بداية منظمة التحرير الفلسطينية ثم قامت إسرائيل باحتلاله.

وقد توقفت الحرب الأهلية الطائفية في لبنان على أثر الجهود التي بذلتها المملكة العربية السعودية في سبيل وقف نزيف الدم اللبناني و بمساعدة دولية وقع اتفاق الطائف عام 1991م وظلت السعودية تعمل على تهدئة الموقف في لبنان و اعلنت عن استعدادها الكامل للمساهمة والمشاركة في تعمير لبنان و عودة الأمن و الاستقرار فيه و في عهد رئاسة إلياس الهراوي تسلم رفيق الحريري رجل الأعمال، رئاسة الوزراء في لبنان للعمل على إعادة الحياة الاقتصادية و العمرانية في لبنان إلى سابق عهدها.

شهد لبنان في عهد الرئيس الحريري انتعاشا انمائيا كبيرا ونموا اقتصاديا ملحوظا. استعاد على اثره كل المؤسسات الحكومية والادارية واعيد توحيد المؤسسة العسكرية والمرافق الحيوية الهامة. الا ان الاستقلال الذي طبع في عقول وعيون اللبنانيين بقي منقوصا بسبب استمرار الوصاية السورية التي دخلت الى لبنان في العام 1976 ضمن قوات الردع العربية للفصل بين المتصارعين اللبنانيين ولوضع حد للاقتتال فيما بينهم على اثر اندلاع الحرب الأهلية في 1975 والتي انسحبت على اثر اتفاق الجامعة العربية وتم الابقاء على القوات السورية فقط لتحل محل القوات العربية.

مثل الرئيس الحريري بالنسبة الى اللبنانيين الرؤية التي كانوا يشاركونه فيها. كانوا يدركون مثله ان بأمكانهم تحقيق احلامهم في بلدهم لبنان كما كانوا يرونه ويتمنون ان يكون عليه .

واجه الرئيس الحريري في العمل السياسي الكثير من الصعوبات في مشوار تحقيق الرؤية التي كانت تحتاج الى قرار حر ومستقبل بلد لا يكون اداة لأهداف وغايات وازمات، بل بلد يكون هدفا بحد ذاته. كانت الظروف انذاك صعبة، منها الاحتلال الاسرائيلي في الجنوب وكان هناك استغلال لهذا الوضع لابقاء الهيمنة على لبنان، ثم انسحبت اسرائيل . بعدها ادرك الحريري بأنه لا يمكن النهوض بهذا البلد وتحقيق الأستقلال الحقيقي في شتى المجالات من دون الأستقرار. لهذا استمرت الممانعة ضد تحقيق هذه الأهداف . الى ان استشهد من اجل هذه الرؤية فما كان من اللبنانيين الا ان قاموا بالتغيير الكبير في ربيع 2005 لأستكمالها بعد استشهاده.

عانى اللبنانيون على أثر هذا الاغتيال صعوبات كثيرة، وزادت حدة الأزمة بعد استشهاد الرئيس رفيق الحريري في 14 شباط 2005، فاستغلت إسرائيل نقمة اللبنانيين على المتهمين بقتل الحريري، وفي طليعتهم سوريا و"حزب الله"لتعلن حرباً مدمرة على لبنان في صيف 2006 انتقاما لهزيمتها في العام 2000. لكنها فشلت مجددا من دون أن تتخلى عن هدفها الإستراتيجي بتدمير المقاومة اللبنانية التي تبنت استراتيجيا الرد الشامل على محاولة تغيير حدود الدول في

منطقة الشرق الأوسط بأكملها وإبدال إتفاقات سايكس – بيكو القديمة بمشروع الشرق الأوسط الجديد في رعاية أميركية - إسرائيلية مشتركة لإمرار المشروع الصهيوني

الا انهم استطاعوا ان يحققوا انجازات عديدة تمثلت بإزالة الادارة الأمنية السورية من لبنان وانسحب الجيش السوري في نيسان 2005. ولكن استمرت الممانعة بأشكال اخرى عبر منع تطور مشروع الدولة. منعت عليهم ادارة بلدهم بعدما كانت تدار من جهات خارجية وداخلية وهم يعلمون بأن لبنان بدون حرية لن يكون لبنان. ...

بعد خروج السوري من لبنان ومع بدء مرحلة جديدة ترك فيها اللبنانيون لمصيرهم ولتقرير خياراتهم بأنفسهم، ورغم ان هذا الشعار ظل في دائرة التمني غير المحقق .

النهضة العربية الحديثة في لبنان

حيث نحن نناقش رواية حكايتي شرح يطول لحنان الشيخ اللبنانية، وهذه رواية بصورة سيرة أم الكاتبة، و هذا النوع من الأدب إنتاج الأنواع الأدبية الجديدة التي نشأت في العصر الحديث فيجب علينا أن نناقش أولا نشأة الأدب العربي بالتركيز الخاص في لبنان.

الإجماع قائم بين الدارسين على أن العصر الحديث يستهل وجوده يوم أن اتصلت الثقافة العربية الإسلامية بأوروبا اتصالا مباشرا، عن طريق غزو نابليون الإمبراطور الفرنسي لمصر عام 1798|،

و لعل أهم حدث شهدته المرحلة السابقة لغزو نابليون أن نهاية القرن الثامن عشر الميلادي عرفت أخطر تحول ثقافي في تاريخ تلك البلاد، ما يمكن أن نسميه انتصار التعريب و اكتمال اكتساب العروبة في بلاد الشام: في سوريا و في لبنان خاصة.

ففي سوريا شهدت الكنيسة المسيحية حلول اللغة العربية محل اللغة السريانية التي كانت اللغة الرسمية للكنيسة، منذ عهد حواري السيد مسيح عليه السلام أما في لبنان فقد مرت اللغة العربية بحالة صراع جم و مساجلة بين عامة السكان و في بيئة العلم و التعليم والعلماء، لبنان لم يكن قد استعرب في جميع مناطقه إلا حديثا، و لم تكن اللغة العربية الفصحى في جبال لبنان قد اتخذت لها جذورا قوية بعد في التراث الأدبي اللبناني. ولم يصدر في لبنان أي عمل مهم ذي قيمة أدبية باللغة العربية، قبل القرن التاسع عشر. كانت الترجمة الاولى للكتاب المقدس إلى العربية ضعيفة و غير صحيحة نحويا، ولذلك اكتسبت كتابات العرب المسيحيين باللغة العربية سمعة رديئة تدريجيا

تغيرت تقاليد الأدب الكلاسيكي بشكل أساسي و نهائي بفعل العلاقات المتبادلة التي نمت بين العالم العربي والغرب في القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين. و بالنسبة للأدب فإن التأثير الرئيس لهذه العملية من العلاقات التبادلية هو الإحلال المطرد للأشكال الأدبية الغربية - المسرحية و الرواية والقصة القصيرة- محل أشكال الأدب العربي بوصفها وسائل رئيسية وليست الوحيدة للتعبير الأدبي في النثر، مصاحبا هذا الإحلال و لو متأخرا تفكيكا للشكل الكلاسيكي في الشعر، على الرغم من أنه مستحيل تحديد تاريخ معين لهذا التغير، و لكن النهضة و هو مصطلح استخدمه أولا جورجي زيدان 1 الناتجة امتدت تقريبا من وسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

نحتاج إلى خلفية عامة لنعرف إسهامات المثقفين السوريين في التطور الأدبي والثقافي الذي عرضناه سابقا. كانت بداية التطور الأدبى الثقافي مختلفة هنا عنها في مصر، وذلك لوجود مجتمعات نصرانية محلية في سوريا ولبنان لها علاقات طويلة مع الغرب، على العكس من مصر التي استمر فيها الوجود النصراني القبطي في عزلة عن الغرب مقارنة بنصارى سوريا ولبنان، وبدأت الكنيسة الكاثوليكية في إنشاء اتصال مع المجتمعات النصرانية الشرقية في

الشرق مبكرًا منذ القرن السادس عشر، وبعثت الإرساليات التبشيرية إلى المنطقة، وأنشأت تدريجيّا سلسلة من المدارس الكاثوليكية، وعام 1736م أبرم المارونون اتفاقية بابوية مع روما تضمن لهم ممارسة تقاليد طقوسهم الدينية المحلية في مقابل الاعتراف بسيادة البابا. وبدأت تنتشرنسخ أوروبية لمواد عربية وبشكل خاص الكتب التوراتية وكتب الطقوسس الدينية بين هذه المجتمعات، ودخلت الطباعة العربية عبر هذا الطريق إلى العالم العربي مع طباعة التراتيل الملكية العربية بيخ حلب عام 1706م". [1]

نتيجة لهذه التطورات ظهر قساوسة متعلمون ومطلعون ليس فقط على تاريخ الشرق الأدنى ولغاته، ولكن أيضا الإيطالية واللاتينية، وأدى تطور النظام التعليمي إلى تكوين طبقة متعلمة وسطى تبوأت مراكز مهمة في التجارة والمال والإدارة، و اهتمت هذه الطبقة بالمنح التعليمية التي شملت اهتماما باللغة العربية والأدب و تاريخ منطقتهم.39 و نشر كثير من المؤرخين أعمالا تدور حول تقلب أحوال المارونيين، و بدأ هذا الاتجاه البطريك إستيفانوس الدويهي (1603-1704م) الذي كتب "تركة الأزمنة" ، و كتب الأمير حيدر شهاب (1761-1835م) كتابا كان له تأثير عن تاريخ لبنان السياسي، و كتب طنوس الشدياق، 40شقيق أحمد فارس الشدياق 41المشهور كتابا عن تاريخ العائلات الارستقراطية في لبنان، ليس فقط العائلات المارونية ولكن أيضا العائلات الإسلامية و الدرزية.

من السمات المميزة للحياة الثقافية لسوريا خلال هذه الحقبة ظهر عدد من العائلات المتعلمة بشكل يفوق العادي، وعلماء في أكثر من جيل، و من المشاهير الذين برزوا : اليازجي والبستاني والشدياق. و تعلم كثير من هؤلاء العلماء في معاهد مارونية في عين ورقاء و من ثم وجد كثير منهم عملا، في جزء منه على الأقل، في القنصليات الأجنبية أو مع الإرساليات الغربية. و تمت نظرة مختلفة لدى هذه المجموعة المثقفة النصرانية في وسط يغلب عليه

[1] بول استاراركي، الأدب العربي الحديث، صـ38

المسلمون داخل الإمبراطورية العثمانية عن تلك التي تميز بها الرواد المسلمون للنهضة في مصر، ولم لم تكن علاقتهم مع الغرب مختلفة جذريا فقط، ولكن أيضا موقفهم من اللغة العربية (التي ارتبط تطورها ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم والإسلام) كان معقدا. و كانوا أقل تقيدا بالتقاليد من نظرائهم المسلمين في أماكن أخرى، وطوروا اهتماما خاصا، وصاغوا العربية بوصفها أداة للتعبير عن الحياة و أفكار العلم المعاصرة،- و هو اهتمام برز ليس فقط في التعبير الأدبي و ما إلى ذلك، ولكن أيضا من خلال تأليف المعاجم و الموسوعات و اهتمام بمجال واسع من الصحافة والأنشطة المتعلقة بها.

أبو هذه المجموعة من الكتاب هو الشاعر والمدرس الماروني ناصيف اليازجي 1800-1871 الذي تقف أعماله في مفترق الطريق بين الأدب الكلاسيكي و الحديث. وعلى الرغم من وصف أهم إصداراته مجمع البحرين 1856 بأنه عمل ريادي، و لكن هناك القليل من الأصالة في استخدام الكاتب لشكل المقامة التقليدية، و من الواضح أن هدفه الرئيس كان تعليميا.44 و أهمية اليازجي تكمن في اهتمامه الكبير باللغة والأدب العربي عنها في أصالته و الدفع الذي يعطيه اهتمامه لرواد النهضة في سوريا و لبنان، و كثير منهم كانوا تلاميذه و على الأقل أربعة من أبنائه-حبيب و وردة و خليل و إبراهيم- كانوا نشطين في الحلقات الأدبية. ويمكن وصف العائلة بشكل عام بأنها أحد المساهمين الرواد في النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر.[2]

وعلى الرغم من أن بداية النهضة الأدبية في سوريا كانت مستقلة إلى حدما عن تلك التي في مصر و لكن التطور الأدبي في المنطقتين خلال القرن التاسع عشر سرعان ما تداخل و عام 1831و لرغبة محمد علي الملحة في ترسية حكم مستقر على الحدود الشرقية غزا سوريا، وبقيت سوريا تحت الاحتلال المصري نحو عشر سنوات يحكمها ابن الخديوي و إبراهيم باشا. وإحدى النتائج المباشرة لهذا الاحتلال كانت ازدياد التعليم الغربي و نشاط الإرساليات التبشيرية

[2]بول استاركي، الأدب العربي الحديث، صـ 45

في البلاد. و لم يقتصر التأثير على عدد مدارس الإرساليات الجديدة المفتوحة خلال هذه الحقبة و لكن أيضا زرعت بذور تطوير التعليم العالي في المنطقة: أسس الأمريكيون عام 1847 كلية أصبحت عام 1866 الكلية الأمريكية ثم تحولت إلى الجامعة الأمريكية المرموقة في بيروت عرفت بعد ذلك باسم جامعة القديس جوزيف. و مع أن التأثير الثقافي للاحتلال المصري القصير كان مهما، و لكن التأثير الجانبي السياسي والاجتماعي لغزو محمد على للمشرق كان دوليا. و أثارت محاولات إبراهيم المساواة الدينية والإصلاح الاجتماعي معارضة كبيرة وقامت ثورة حيث أثار النظام المصري المعارضة الغربية بدخوله آسيا الصغرى و أدت هذه الثورة إلى إخلاء المصريين من بلاد سوريا عام 1840. 46و أعقبت ذلك عقبة من الفوضى السياسية واتسمت هذه الحقبة بإزدياد التدخل الغربي و قسوة الحاكم العثماني و نمو التوتر بين الجماعات الدينية المختلفة. ووقعت الحرب عام 1860 بين المجتمع الدرزي والماروني و غادر كثير من السوريين بما ذلك بعض المثقفين البلاد و هو نمط تكرر في مناسبات عديدة على مر السنوات اللاحقة. و ذهب هؤلاء المهاجرون إلى مصر و ساعدوا على تحريك البحث عن أشكال جديدة للتعبير الأدبي و مساهمتهم في حقل المسرح والصحافة مهمة. و بعضهم الآخر بحث عن ملجأ في مجتمعات المهجر في شمال أمريكا و جنوبها التي سرعان ما نشأت فيها مجموعات أدبية واجتماعية مقربة، من بينها كتاب مثل ميخائيل نعيمة و جبران خليل جبران اللذين أديا دورا رئيسيا في نقل تجربة الأدب الغربي المعاصرة إلى عرب الشرق.

تطور الفنون الأدبية في لبنان

تطور الصحافة

في سوريا كما هي الحال في مصر كان للصحافة دور مهم في تطوير النهضة الأدبية، وعام 1851 أسست الإرسالية الأمريكية البروتستانية في بيروت المجلة العربية مجموعة فوائد لنخبة أفاضل، ورأت السنوات اللاحقة توسعا في الطباعة التجارية و نشاط النشر، الذي جعل من بيروت أحد أهم مراكز النشر في الوطن العربي، وهي مكانة مازالت تتمتع بها مع القاهرة. في هذه الحقبة ظهر كثير من الإصدارات المؤثرة بما في ذلك مجلة الجنان 1870-1860 التي كانت تصدر كل أسبوعين، و ارتبطت بشكل خاص بعائلة البستاني. المجلة النقدية الشهرية المقتطف 1876-1959 حررها في البدء يعقوب صروف و فارس نمر، و انتقلت إلى القاهرة عام 1885. و ظهر هذا النوع من النشر العربي أيضا في إسطنبول مركز الإمبراطورية العثمانية و هناك صدرت الجوائب 1861-1884و كان يحررها أحمد فارس الشدياق التي أدت دورا مهما في الإزدهار الأدبي، مثيرة نقاشا عن التطور اللغوي والأدبي، حققت توزيعا وصل إلى خارج تركيا و وصل الهند و زنجبار و شمال إفريقيا. و كما هي الحال في مصر، أدت هذه المطبوعات و مثيلاتها مهام عدة فقدمت معلومات جمة للقارئ العادي عن الفكر الغربي والحضارة و العلم و في الوقت نفسه كانت وسيلة لإصدار نصوص أدبية سواء كانت ترجمات أم مقتبسات أم أعمالا جديدة. و في بعض الحالات على الأقل كانت أداة الأفكار السياسية ومن ثم كان لها دور مهم في تطور أفكار القومية العربية داخل إطار الإمبراطورية العثمانية.[3]

كان لبطرس البستاني 1819-1883 دور مهم بشكل خاص في النهضة السورية الذي إضافة إلى تأسيسه مجلة الجنان نشر عدا من ترجمات الأعمال الغربية الأدبية، منها رحالة الحاج

[3] نفس المرجع صـ 50

لجون بنيان و رواية روبنسن كروزو لدانييل ديفو. و من الأرجح أشهر مساهماته في مجال تأليف المعاجم كتابه محيط المحيط 1867-1870 الذي يعد عادة أول قاموس يضعه معجمي عربي حديث و ألف الأجزاء الأولى لأول موسوعة عربية دائرة المعارف 1876-1882. وأكمل أفراد آخرون من عائلته أنشطته منهم عبدالله البستاني 1854-1930 الذي بجانب عمله صحفيا و مترجما و ضع قاموسا ضخما، و سليم البستاني 1846-1884 رائد مهم في تطور القصص العربي، سليمان البستاني 1856-1925 الذي فعل أكثر من مساعدة ابن عمه بطرس في عمله على الموسوعة العلمية، و لكنه أيضا وضع ترجمة شعرية لإلياذة هوميروس، و هي أول محاولة حديثة لترجمة عمل كلاسيكي رئيس إلى العربية.

و قدم فارس الشدياق مساهمات مهمة للعلوم اللغوية و علم المعجمات، و هو الأروع في هذه المجموعة من الكتاب، و جسد عمله العلاقات المعقدة بين الشرق والغرب. و أيضا داخل الشرق الأوسط ذاته في ذلك الوقت. و يقع الإنتاج الأدبي للشدياق على مفترق طرق عدة مستمدة من التراث الأدبي العربي و الغربي، و محتلة مكانا حيويا في نقطة التحول بين الأدب الكلاسيكي والحديث إضافة إلى أن هذا الرجل من خلال رحلاته و معارفه و التصاقه بأديان مختلفة ومجموعات اجتماعية قلل من التوتر و الخيارات التي تواجه كثيرا من المثقفين في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر حين يواجهون التأثير الغربي المتنامي.

ترك الشدياق ثلاثة أعمال جوهرية حملت تجربته و آراءه عن الغرب، ولها أهميتها: الواسطة في أحوال مالطا 1836، و هو يزودنا بوصف لتاريخ و جغرافية و تقاليد الجزيرة، التي أمضى بها جزءا كبيرا من بداية حياته العملية، وكشف المخبأ عن فنون أوروبا، تونس 1866، و هو تفصيل عن أوروبا المعاصرةو يمثل امتدادا و اضحا لكتاب رفاعة الطهطاوي تخليص الإبريز في تلخيص باريز، و كتاب جزء منه متخيل و الجزء الآخر سيرة ذاتية بعنوان الساق على الساق في ما هو الفارياق، باريس 1855

و من وجهة نظر أدبية فإن الأهم من بين هذه الأعمال الثلاثة هو الساق على الساق . و وصف مع بعض المبالغة بأنه أول مقاربة حقيقية للكتابة القصصية في الأدب العربي الحديث. و من الواضح أنه يدين لأسلوب المؤلف لورانس سترن والأسلوب السردي للشدياق مقارنة بمعاصريه من العرب، يسبق زمانه، فعلى سبيل المثال يستخدم البعد السردي حيث يشير إلى نفسه بأسلوب الشخص الثالث وليس المتحدث و دعاباته بالتبادل مستهزئة و ساخرة، و في بعض الأحيان فقط مغرفة في التفاصيل وهذه الروح الفكاهية مبنية بقوة على مراقبة دقيقة للبشرو تتنوع نبرة سرده بشكل كبير إلى حد أن القارئ قد يضيع بين الخيال و الوقائع و لاتكون الحدود الفاصلة بينهما واضحة.

من المحتمل أن أعمال الشديق كانت ذات خصوصية عالية، ما صعب وجود خلفاء له في الكتابة، و لكن سيرته العملية قدمت تذكيرا نافعا بأن القنوات التي أعاد فيها العرب اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر من خلال عملية تحديد علاقاتهم بالغرب، فإن العرب أعادوا تعريف أنفسهم، كانت معقدة بشكل كبير أكثر مما ذكرته الكتابات التقليدية، و الشدياق الذي همش في معظم عمله يمكن وصفه بالقوة لقوة شخصيته و تفردها، لتجاوزه و تأمله في ظروف زمنه. و في الواقع فإنه يتحفنا بمجموعة شائقة من قصص الحياة في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، التي بالتأكيد تأخرت دراستها دراسة مستفيضة.

المسرحية في لبنان

وبدأ المسرح يظهر في سوريا في تلك الأثناء و أول خطوة مهمة أخذت لتأسيس مسرح عربي حديث كانت عام 1847، حين عرض اللبناني مارون النقاش مسرحية مأخوذة من مسرحية موليير في بيته بيروت. تبع ذلك عام 1849 بعرض مسرحية أبو الحسن المغفل و هارون

الرشيد التي أخذت من إحدى قصص ألف ليلة و ليلة. كانت وفاة مارون المبكرة ضربة لتطور المسرح العربي و لكن حماسه لهذا الفن الذي اكتسبه من رحلاته التجارية إلى أوروبا، انتقل إلى أفراد آخرين من عائلته. و نشر أخوه نقولا النقاش الذي كتب أيضا المسرحيات مسرحياته وشكل ابن أخيه سليم خليل النقاش فيما بعد فرقته الخاصة. و عام 1876 و بعد عودة الخديوي إسماعيل له استقر في الإسكندرية. و استمر انتقال الموهبة المسرحية من لبنان إلى مصر في ثمانينيات القرن التاسع عشر و تسعينياته

و على الرغم من أن معظم التطور الثقافي في المشرق خلال هذه الحقبة كان متركزا في لبنان، كما هو واضح مما سبق و لكن حلب و دمشق كانا لهما نصيبهما الفكري. بدأ أحمد أبو خليل القباني 1841-1902 في دمشق عرض مسرحيات على غرار مسرحيات مارون النقاش، بعض هذه المسرحيات استمد قصصها من ألف ليلة و ليلة، و عام 1884 أقفل مسرحه، وانضم إلى المواهب المسرحية التي انتقلت من سوريا إلى مصر. وفي مجال الأدب القصصي الناشئ ساهم معاصره نعمان عبده القصطيلي 1848-1920 بثلاث قصص رومانسية نشرت في مجلة البستاني الجنان، 57و يجب أن نذكر فرانسيس ماراش 1836-1873 في حلب، و هو كاتب أرثوذكسي و شاعر و يدور كتابه الرمزي غابات الحق 1865 الذي معظمه حواري حول قضية الوصول إلى مملكة الحضارة و الحرية و توقف عمل ماراش الكتابي بسبب موته المبكر، إلا أن أسلوبه الأصلي ما بين النثر والشعر أثر بعد ذلك في جبران خليل جبران 58و على الرغم من أنه لا يقرأ الآن كثيرا و لكنه وصف بأنه استحق أن ينظرإليه على أنه أول عربي حقيقي عالمي مثقف في الوقت الحاضر.[4]

[4]بول استاركي، الأدب العربي الحديث، صـ 59

تطور القصة و الرواية العربية

بسب الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 غلبت في هذه المرحلة على الرجمات العربية من اللغات الأوروبية ترجمات الروايات الفرنسية و القصص القصيرة، و كان عليها إقبال كبير، ولم تكن في معظمها بذات قيمة أدبية و معظمها قصص حب رومانسية. و في الوقت نفسه وعلى الرغم من تدفق أشكال جديدة من الكتابة المأخوذة من الغرب و لكن بنى السرد التقليدية كانت مازالت تستخدم بشكل كبير من بعض الكتاب،

إن كتاب محمد المويلحي "حديث عيسى بن هشام" يعد آخر عمل أدبي رئيسي يستخدم شكل المقاومة، و بشكل عام من الواضح أن هذا العمل هو استمرار للخط الذي انتهجه الطهطاوي في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" صـ 167 على الرغم من يقف في بعض النواحي في نهاية مرحلة و لكنه من نواح آخر يعلم لبداية مرحلة جديدة في التطور النثر الأدبي العربي الحديث، و بالتأكيد عد في بعض الأحيان بداية الرواية المصرية ، و يصف بطرس الحلاق بأن رواية الشدياق "الساق على الساق" هي أول محاولة حقيقية للكتابة الأدبية الروائية و القصصية في الأدب العربي الحديث صـ 10 لكن هذا العمل الذي بالتأكيد كان سابقا لزمانه لم يأت بعده مباشرة عمل مماثل. والأقرب من وجهة نظر التطورات اللاحقة كتابات فرانسيس مرعش 8136-1873و بطرس البستاني 1819-1883 خاصة ابنه سليم البستاني 1846-1884 الذي ساعدت ترجماته والأعمال التي كان معظمها من الأدب الفرنسي، في وضع الأساس لتطور القصة القصيرة والرواية التاريخية و تم استعراض مساهمات هذه العائلة في النهضة الأدبية.

ارتبط تطور القصة القصيرة بالرواية و لا يمكن فصلهما، تميزت القصية القصيرة من الرواية بسبب سهولة نشرها في الصحف و المجلات، و على الرغم من أن الروائيين قد قاموا بنشر رواياتهم مجزأة لكن ميلهم إلى نشر أعمالهم بوصفها وحدة متكاملة أمر بديهي، وارتبط ظهور

القصة القصيرة بقوة مع توسع رقعة القراءة و ظهور التعليم و تطور الطباعة الحديثة على خطا النماذج الغربية.

قد أدى أفراد عائلة من عائلة البستاني اللبنانية دورا رئيسيا، خاصة بطرس البستاني 1819-1883 و ابنه سليم البستاني 1846-1884، مثل جميع الفنون الأخرى فإن تأليف القصص القصيرة المبتكرة أتى لاحقا لمرحلة كان الشائع فيها الترجمات أولا ثم الاقتباس، و ما كان الفرق بين الترجمات و الاقتباس. و معظم الترجمات كانت من الفرنسية أو الإنجليزية غير أن القصص القصيرة الروسية كانت لها شعبية كبيرة في بعض الأنحاء. و نشرت قصص سليم البستاني في مجلة الجنان و هي مجلة كانت تصدر كل أسبوعين، و قصصه تتحدث عن موضوعات الحب و الزواج، و هي الآن مركز اهتمام أكاديمي. و تأتي أهميتها الرئيسية لكثير من النقاد في كونها ترسم كاتبا يصارع مع إشكالات نقل الأساليب الغربية و الحبكات إلى بيئة اجتماعية و ثقافية مختلفة .[5]

و اسم بارز في هذا المجال الكاتب المصري عبدالله النديم، مع نشاطه في الشعر والنثر كان ناشطا في السياسية المتطرفة، و شمل نشاطه ليس فقط التعليم و نظم الشعر والصحافة بل عامل تلغراف و مدير مدرسة، و مساهمته الرئيسية هي مجلاته السخرية "التنكيت و التبكيت" 1881، و الطائف 1881 والأستاذ 1892. و قد ساهم في تطوير هذا الفن الأدبي كثير من الأدباء و حسب صبري حافظ يمكن تقسيم هؤلاء الكتاب إلى قسمين رئيسين: الأول حاول أن يبني على أعمال النديم، و ذلك بتجديد شكل المقامة، و في حين طبق القسم الآخر صيغة هجينة و هو الذي يسمى أحيانا المقال السردي.[6]

---

[5] نفس المرجع صـ 181
[6] نفس المرجع صـ183

و أهم سلسة من المساهمات ذات الأهمية كان خليل جبران، و أشهر أعماله "الرسول" الذي حصل على مكانة مميزة في بعض المجتمعات في الغرب كتب باللغة الإنجليزية ثم ترجم إلى العربية، و أعمال بالعربية مثل عرائس المروج 1906و الأرواح المتمردة 1908و الأجنحة المتكسرة 1912 تستحق موقعا رئيسيا في تطور النثر العربي، و كاتب مصري مصطفى لطفي منفلوطي 1877-1924 و أبرز صفات أعماله هو الميل الرومانسي إلى العاطفة كأنها مهدت الطريق للشعر الرومانسي في عشرينات القرن العشرين و ثلاثيناته، تظهر أعمال المنفلوطي الطريق المحافظ الذي سلكه بسبب التعليم والتثقيف الذي حصله، و يذكر بمقالاته النثرية والقصص القصيرة التي نشرت في مجلة المؤيد، ثم نشرت في مجموعة باسم النظرات والعبرات، غير أنه لم يدرس في الغرب لكنه كان قادرا على نشر نسخ عربية عدة مأخوذة من أعمال فرنسية أدبية. و برز في تلك الأثناء كتاب أدوا دورا في إعادة توجيه سير القصة القصيرة، منهم الكاتب المصري مصطفى عبدالرزاق 1885-1947 و هو أحد مؤسسي مجلة السفورو هو شقيق علي عبدالرزاق 1888-1966 الذي كتب الإسلام و أصول الحكم و أثار قضية الخلافة ليست جزءا أساسا من الإسلام، و من بين الكتاب المهمين في ذلك الوقت الأخوان السوريان-اللبنانيان عيسى عبيد 1922و شحاته عبيد 1961 و هاجرا من السوريا إلى مصر وألقا أنفسهما بحماسة إلى روح بلدهما البديل مطالبين بأدب مصري جديد يصف الحياة الاجتماعية و الوطنية لمصر بأسلوب أكثر واقعية.

لكن الدور الرئيس لنضج القصة القصيرة العربية أداه الأخوان المصريان محمد تيمور ومحمود تيمور و أمثالهما أحمد خيري سعيد و حسين فوزي ومحمود طاهر لاشين و يحي حقي. وحركة أدبية باسم المدرسة الحديثة أدت من خلال المجلة الأدبية الأسبوعية الفجر دورا رئيسيا في تطوير القصة القصيرة و في توسيع دائرة قراءتها. و أخت محمد التيمور عائشة عصمت التيمورية 1840-1902 التي كانت شاعرة نسوية مبكرة و كتبت عن تعليم الفتيات و علاقات الجنسين، و محمد تيمور درس القانون في باريس و بدأ عام 1917 بنشر قصص قصيرة

بأسلوب الكاتب الفرنسي دي موباسان تحت الاسم المستعار "ما تراه العيون" كان تأثره في تطوير القصة القصيرة توقف بسبب موته المبكر.صـ 187 و عادت المسؤولية إلى معاصريهم لتوصيل القصية إلى النضج.

و بدون الذكر بجمعية المدرسة الحديثة لا يكتمل الحديث عن القصة القصيرة، و كتاب هذه الجمعية أدوا دورا رئيسيا في تطوير و توسيع هذا الجنس الأدبي، و في تطوير حس أدبي جديد مناسب للزمن على المستوى الفردي، والأسماء الثلاثة الأهم: محمود تيمور، و يحيى حقي، ومحمود طاهر لاشين. محمود طاهر كان متأثر بأخيه و نشر أعماله بعد وفاته، نشر أول مجموعة قصصية "الشيخ جمعة و قصص أخرى" و بعده "أم متولى و قصص أخرى" عام 1925 و مجموعة كتبه القصصية تبلغ إلى عشرين بالإضافة إلى الروايات و مجموعة المقالات و المسرحيات، و عرف بسبب ذلك "موباسان المصري"، ثم يأتي اسم لاشين و يعود الفضل إليه للسير بالقصة القصيرة المصرية و العربية إلى مرحة جديدة و ناضجة من التطور و خاصة "حديث القرية 1929" و تكمن أهمية القصة ليس فقط في الشجاعة التي تلاعب فيها لاشين في شكل سردي لكن في تصوير المكتمل للمعاناة السياسية و الاجتماعية التي تواجه مصر الحديثة والواقعة في صراع طويل بين القيم التقليدية و الحديثة. لسوء الحظ توقف لاشين عن كتابة القصص القصيرة لكن قدمت نقطة البداية لأسلوب جديد و واقعي في السرد. و أثمر هذا الأسلوب في القصص القصيرة على يد يحيى حقي، و هو يستمد موضوع أعماله من مرحلة السنتين اللتين قضاهما بمدينة منفلوط، و أعماله تدور حول الصراع بين عقلية الفلاح و عقلية مثقف المدينة المتعلم الذي يمثل روح عمل لاشين "حديث القرية"و هو موضوع يتكرر في أعمال يحي حقي، و أيضا في قلب أعمال عدة رئيسية بما في ذلك كتاب "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم 1937، من أبرز أعمال يحي حقي "قندي أم هاشم" 1946 و يتحدث

عن صراع طبيب عيون مشهور متعلم في الغرب ليجمع بين قيم العلم الغربية مع القيم الروحية التقليدية لبلده القاهرة حين يعود من دراسته في الخارج. [7]

يأتي اسم الكاتب الفلسطيني خليل بيدس من بينهم الذي حرر عدة المجلات الأدبية مثل "النفائس العصرية" و جمعت قصصه القصيرة في كتاب مسحية الأذهان 1924 صـ 189 ، و أدى دورا رئيسيا في نشر تذوق الأدب الروسي الحديث في جميع الشرق الأوسط. و تم نشر مجموعته القصصية 1924 في القاهرة.

الرواية

أهم تطور مستقبلي للرواية العربية يختلف عن أي محاولات مبكرة أخرى للكتابة الخيالية هي سلسلة من اثنتين و عشرين رواية تاريخية، كتبها اللبناني جوجري زيدان 1861-1941 واتبع زيدان الذي كان في الأصل يريد أن يتخصص في دراسة الطب، طريقا اختاره كثير من المثقفين السوريين والبنانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذين هاجروا إلى مصر. و في مصر طور اهتمامه في التاريخ والأدب و أسس مجلة الهلال عام 1892 التي أدت دورا هاما في نشر مواد علمية و تاريخية و ثقافية لأكثر من قرن. [8]

و سيرة زيدان مهمة في ذاتها فهو عربي غير مسلم و كتب كثيرا عن التاريخ الإسلامي بالشكل المتخيل وغير المتخيل و روايات زيدان روايات تاريخية هي مصادر علمية أكثر منها عمل أدبي، و كل واحدة منها تدور حول حقبة أو حادثة في التاريخ الإسلامي و لكن السرد التاريخي نادرا ما يتداخل بإقناع مع العناصر الأخرى للعمل الأدبي، التي غالبا ما تشمل بطلا في علاقة

[7] بول استاركي، الأدب العربي الحديث، صـ 188
[8] نفس المرجع صـ 169

حب. وربما يكون هذا السبب الذي جعل النقاد الغربيين لا يعيرون هذه الأعمال أي اهتمام، مقارنة بأنها ظلت مرغوبة من القراء العرب، و أعيدت طباعتها مرات عديدة. و سار عدد من الكتاب بعد ذلك في الاتجاه التاريخي في المجال الروائي، الذي بدأه زيدان في مصر، و على الرغم من أن أيا منهم لم يكن إنتاجه بغزارة إنتاج زيدان ولكن أعماله لم تكن عديمة القيمة من وجهة نظر أدبية و أيضا تاريخية.

و من الأعمال التي لها أهمية أكبر من ناحية تطور الرواية التاريخية جهود محمد فريد أبو حديد 1893-1967 و ظهرت روايته ابنة الملوك عام 1926 و هي تتحدث عن صراع محمد علي مع المماليك بين الأعوام 1804-1807 و تنجح الرواية في فهم المكايد السياسية التي تمثل خلفية مؤثرة لأحداث القصة. صـ 171 واستمر في الكتابة فوصل عدد رواياته إلى ست روايات تاريخية بنضج وواقعية متزايدة و أكثر هذه الروايات نجاحا الوعاء المرمري 1951 التي تتحدث عن حياة البطل اليمني سيف بن ذي يزن الذي عاش في زمن الغزو الحبشي في أوائل القرن السادس للميلاد، و تابع كتاب آخرون بعد ذلك مسيرة تطوير الرواية التاريخية الذي مثلته أعمال أبي حديد في مصر بما في ذلك على الجارم 1881-1949 و على أحمد باكثير 1910-1969 و عبدالحميد جودة السحار 1913-1974 وبعض الأعمال الأولى لنجيب محفوظ 1911-2006.

و الكاتب الآخر الذي أسهم مساهمة مهمة في تطوير الرواية التاريخية هو اللبناني يعقوب صروف 1852-1927 و هو مثل زيدان أحد أفراد موجة هجرة السوريين النصارى المتعلمين الذين هاجروا إلى مصر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، و نشر صروف ثلاث روايات هي فتاة مصر 1905 و فتاة الفيوم 1908 و أمير لبنان 1907. والرواية الأخيرة لها أهمية خاصة و ساهمت بشكل غير مباشر في تطور الأدب العربي الحديث لأنها تدور حول حادثة في تاريخ لبنان بمنتصف القرن التاسع عشر و ذلك من خلال ظهر هجرة المفكرين من البلد.

لقد شهدت هذه الحقبة ظهر النساء الروائيات و استخدمن الشكل الروائي للتفكير في العلاقات الاجتماعية، و يمكن رؤية ذلك في أعمال الكاتبة اللبنانية لبيبة هاشم التي تصف روايتها قلب الرجل 1904 علاقة عاطفية بين لبناني نصراني و امرأة درزية. و روائية أخرى نشطت في تلك الحقبة هي اللبنانية زينب فواز 1850-1914، و تعرف بوصفها كاتب غير روائية و رائدة في الكتابة عن حقوق المرأة، و زينب مثل كثير من مواطنيها قضت معظم حياتها في مصر. ونشرت روايتين هما حسن العواقب و غادة الزهراء 1899 والملك كورش أول ملك الفرس 1905، والأولى هي الأشهر تدور أحداثها في لبنان في المجتمع الدرزي و تتحدث عن تنافس بين أميرين للفوز بابنة عمهما. و إضافة إلى أعمالها الروائية كتبت زينب معجما عن سير النساء بعنوان الدرر المنثور في طبقات ربات الخدور 1894. [9]

تستحق رواية زينب اهتمامنا ليس فقط لأنها حدث مهم و لكنها أيضا نقطة تحول مهمة في تطور الرواية المصرية العربية، و ظهر العمل تحت اسم مستعار فلاح مصري لأن الكاتب لم يرد أن يقف نشاطه الروائي في طريق مشروع عمله القانوني.

على الرغم من استمرار سيطرة الكتاب المصريين على الإنتاج القصصي العربي، و لكنه في نهاية ثلاثينيات القرن العشرين ظهر اهتمام متزايد مهم تجاه الشكل الروائي في أنحاء العالم العربي خاصة في لبنان وسوريا و العراق، و بغض النظر عن الدور الحيوي الذي أدته سوريا و لبنان في نهضة القرن التاسع عشر، لكن النشاط الأدبي في هذين البلدين يبدو أنها عانى شيئا من الخفوات خلال العقود الأولى من القرن العشرين. و ليست واضحة تماما أسباب هذا الخفوت، على الرغم من أن هجرة عدد كبير من أشهر المثقفين إلى مصر و الأمريكتين كان بلا شك أحد الأسباب. وعلى أي حال، لم تظهر رواية لبنانية ذات جودة و متعة يمكن مقارنتها بإنتاج ثلاثينات القرن العشرين في مصر إلا عام 1939م. و شهدت أوائل ثلاثينات القرن بداية

[9] نفس المرجع 171

انتعاش النشاط الثقافي و الأدبي خاصة في بيروت، و بدأت مجموعة باسم الأصابع العشرة بضخ الحياة إلى أماكن المدينة الثقافية المعروفة، مدفوعة بأمثلة شعراء المهجر و غيرهم. و من الذين كانوا يرتبطون بقوة مع هذه المجموعة توفيق يوسف عواد الذي كان قد عرف بعد نشره مجموعتين قصصيتين، الصبي الأعرج 1937 و قميص الصوف 1937، و حيث ظهرت روايته الرغيف 1939 ميزته بوضوح بوصفه مؤلفا ذا موهبة كبيرة. و من الواضح أن العمل تأثر بقومية العربية المعاصرة، فالعمل يتحدث عن زمن ثورة 1916م ضد الأتراك، و لكن مثل بعض الروايات المصرية التاريخية لا يخفى الزمن التاريخي الروائي علاقته بزمن عواد، ولعل هذا القرب إضافة إلى ميزة العمل الأدبية كان السبب في شعبيته. و لسوء الحظ يبدو أن عواد الذي عمل مدة من حياته دبلوماسيا كان يفتقر إلى الإخلاص العميق لشكل الرواية الذي نجده عند نجيب محفوظ على سبيل المثال، و لم ينجح في اقتناص التوجه السائد مرة أخرى إلا عام 1972م في رواية طواحن بيروت وهي وصف تصويري لمجتمع بيروت المتفكك إبان يونيو 1967 حيث حقبة الحرب العربية-الإسرائيلية و انفجار الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975.

و من بين الكتاب الآخرين الذين اشتهروا في ثلاثينات القرن العشرين و أربعيناته في لبنان وارتبط كثير منهم بمجموعة الأصابع العشرة أو بالمجموعة التي جاءت بعد الأصابع العشرة بمدة بسيطة النادي اللبناني 1946-1966، حيث نجد الروائي وكاتب القصة القصيرة خليل تقي الدين 1906-1987و الشاعر سعيد عقل 1912 والناقد والروائي مارون عبود 1886-1962 الذي أهله إنتاجه الضخم لأكثر من خمسين كتابا ليكون أحد أكثر الأشخاص تأثيرا في الحياة الفكرية والثقافية اللبنانية في وقته. تحظى دراسته عن الشعر اللبناني العامي "الزجل" التي بعنوان الشعر العامي 1968م بأهمية خاصة. و ينتمي إلى هذه البيئة الفكرية التي جعلت بيروت تحتل دور العاصمة الثقافية و أيضا المالية للشرق الأوسط في الحقبة اللاحقة للحرب العالمية الثانية، سهيل إدريس الذي يذكر دائما مرتبطا بالمجلة "الملتزمة" الأدبية و هي واحد من دور نشر عدة مجلات أسست في بيروت في تلك الحقبة. و إضافة إلى دوره بوصفه ناشرا فإنه أسهم

أيضا في مجال الرواية والقصة القصيرة، خاصة روايته المشهورة " الحي اللاتيني" 1954م. و هذه الرواية تقف في خط مستقيم منحدر من أعمال مماثلة لأعمال طه حسين و توفيق الحكيم و غيرهما عن موضوع الصراع الثقافي الذي يعيشه الطالب العربي في أوروبا. ثم أتبع هذه الرواية بروايتين "الخندق الغميق" 1958م و "أعصابي أنا التي تحترق" 1962م، و كلا العملين و هما في جزء منهما سيرة ذاتية مثل الحي اللاتيني لم يصل أي منهما إلى الشهرة المستحقة للعمل الأول.

و نموذج آخر مماثل للتطور الذي رأيناه في مصر من الترجمات المبكرة، التقليدة و التجربة ومن خلال الرواية التاريخية إلى الرواية الناضجة بالأسلوب الغربي يمكن أن نرى ذلك أيضا في سوريا، حيث نجد أن الأعمال الرائدة لفرانسيس مرعش 1836-1873م الذي أثر أسلوبه النثري الشعري على جبران خليل جبران، تبعتها الروايات التاريخية لمعروف أحمد الأرناؤوط 1829-1948م التي نشرت بين الأعوام 1929 و 1942، و جمعت الروايات الأربع لاحقا وأعيد نشرها تحت عنوان "الملحمة الكبرى". و لجهود شكيب الجابري 1912-1996م أهمية عظيمة في تطور شكل الرواية عموما. و ينظر إليه على أنه مؤسس الرواية السورية الحديثة، وتقع أحداث روايته الألى "نهم" 1937م في ألمانيا و مثل كثير من الأعمال التي سبق أن ناقشناه تعتمد بشكل كبير على تجربة المؤلف في أثناء حياته خارج وطنه شابا. و استكملت رواياته اللاحقة "قدر يلهو" 1939م و "قوس و قزح" 1946م و الأخيرة "وداعا يا أفامية" 1960 هذه الفكرة العامة، و كل رواية تهتم بجانب مختلف من التوتر بين الشرق والغرب على المستوى الشخصي و على المستوى الوطني أكثر، و لكنه يبدو أنه لم يحصل أي منها على مكانة "نهم" بوصفها علامة بارزة في تطور الأدب الروائي السوري الحديث.

و ربما الأكثر أهمية أعمال نجيب محفوظ 1911-2006، و هو أكثر المؤلفين المصريين إنتاجا، وقد يكون أيضا من بين كتاب الخيال الأدبي العربي على المستوى الدولي بعد فوزه

بجائزة نوبل للأدب عام 1988م، فإن رويات نجيب محفوظ بعكس كثير من الكتاب الآخرين تبدو أنها تتحرك عبر عدد من المراحل الحذرة: من بداياته بوصفه كاتب روايات تاريخية، ثم انتقال عمله إلى مرحلة الواقعية الاجتماعية حتى يصل ذروته في الثلاثية ثم تبعها بسلسلة من الأعمال التي كانت فيها الاهتمامات الدينيةو الفلسفية و الغيبة المتداخلة مع تعبير عن الإحباط إن لم يكن الاشمئزاز من مسيرة المجمتع المصري بعد الثورة. و من اللافت للنظر ربما، توقف نجيب محفوظ عن الكتابة تماما بعد ثورة 1952م. و عانى الصمت الإجباري الذاتي مدة بعد حرب الأيام الستة عام 1967م و لم ينشر أي شيئ حتى عام 1972.

وعلى الرغم من سيطرة نجيب محفوظ على هذه الحقبة لكن هذه المرحلة شهدت نشاط مناطق أخرى من العالم العربي أيضا، في سوريا و لبنان يبرز روائيان بوضفهما كاتبين أسهما في تطور النثر الروائي خلال هذه الحقبة: السوري اللبناني حليم بركات 1936 والسوري حنا مينا 1924 و على الرغم من أن عمل الرجلين يختلف كثيرا في بعض الأوجه عن بعضهما، ويعكس خلفييتهما المختلفة و عملهما، لكن كليهما يمثل اتجاهات عامة في تطور الرواية العربية والقصة القصيرة خلال خمسينيات القرن العشرين و ستينياته. و لد حليم بركات في سوريا وتربى في لبنان و قدم مساهمات مهمة في قطاع دراسات الشرق الأوسط بوصفه عالما سياسياو اجتماعيا، الذي تذهب بعيدا وراء الأدب الروائي، و لكن رواياته و قصصه القصيرة تعكس مواقفه في أعماله غير الخيالية في الاتجاه العربي القومي و اهتمامها بالقضايا المعاصرة، خاصة المتعلقة بالفلسطينيين. ومن بين الروايت الست أو نحو هذا العدد التي نشرها حتى الآن تتميز روايات بشكل خاص ستة أيام 1961 و عودة الطائر إلى البحر 1969 و كلتاهما تتعلقان بالصراع الخاص بالقضية الفلسطينية. صـ 215 و نقتبس كلام روجر ألين "يبرز عمل حليم بركات

بوصفه أحد أكثر الكاتبات تأثيرا عن انهيار 1967 و مضامينه و سوف يبقى معلما للخيال العربي المكتوب خلال هذا القرن" [10]

فإن حنا مينا ينتمي إلى الطبقة العاملة الحقيقية، ولد في اللاذقية على الساحل السوري، و هي بيئة تفسر طغيان ذكر البحر على كثير من أعماله، و تقع أعمال حنا مينا الذي يمكن وصفه أحد الروائين السوريين الرواد في خانة "الواقعية الاجتماعية" لأنها اتسمت بموقف الالتزام، وروايته "بقايا سوار" 1974 سيرة ذاتية تعتبر نضجا في الأسلوب.

حركة تحرير المرأة

قد ظهر في نهاية القرن التاسع عشر كثير من المصلحين و في طليعتهم جمال الدين الأفغاني 1839-1897م، تطريق إلى حقوق المرأة في الإسلام من زوايا متعددة، و أعاد النظر في المفهوم التقليدي في التعاليم الإسلامية العيدة تتعلق بالمرأة و خصوصا في قضايا العلاقات الزوجية و وضع المرأة. و بعده تناول محمد عبده هذا الموضوع و حاول من خلال كتاباته ودعوته أن يسد الفجوة بين تعاليم الإسلام و واقع المرأة الذي تعيشه المرأة المسلمة. و أكد على المساواة بين المرأة والرجل. "و هذه المساواة الثابتة من القرن (وهو الذي خلقكم من فس واحدة وخلق منها زوجها، الأعراف آية 189) تقتضي أن الرجل و المرأة لهما نفس الحقوق و نفس الواجبات في الدنيا و الدين، فهما يتماثلان في الحقوق والواجبات و في الذات والإحساس و في

[10] نفس المرجع صـ 216

الشعور والعقل، أي أن كلا منهما بشر تام، له عقل يتفكر في مصالحه، و قلب يحب ما يلائمه ويسر به، و يكره مالا يلائمه و ينفر منه. [11]

و مواصلة جهوده في إصلاح الأمة الإسلامية بشأن المرأة قد تناول الشيخ محمد عبده قضايا الطلاق و تعدد الزوجات، و إنه صرح بسماح الطلاق بشروط و قيود.

واسم قاسم أمين 1863-1909 هو على رأس قائمة المصلحين و الناشطين لحقوق المرأة، ويعتبر رائد تحرير المرأة، تناول قضايا المرأة، قد أنتج كتابين مهمين في هذا الموضوع، وتناول بالتفصيل قضايا و مشكلة المرأة في المجتمع الإسلامي, صدره كتابه "تحرير المرأة 1899م و يناقش فيه قضايا الحجاب و الزواج و الطلاق و تعدد الزواج. ثم صدر كتابه "المرأة الجديدة" 1901، و هذا الكتابان فتحا بابا للجدل و السجال والبحث بين علماء الإسلامين والناشطين و المثفين المهتمين بحقوق المرأة. إنه دعا إلى تحرير المرأة من الحجاب التقليدي ودعا إلى مشاركة النساء في جميع الأمور الدنيوية و في تطوير البلاد.

قد جاء فيما بعد رجال آخرون الذين أيدوا فكرة قاسم أمين من أمثل لطفي السيد 1872-1963، وسعد زغلول 1857-1937، و طه حسين 1889-1973

وفي بداية القرن العشرين ظهرت الكاتبات، مثل ملك حفني ناصيف – باحثة البادية- 1886-1918 و كانت تكتب في الصحف و الجرائد حول قضايا الزواج والطلاق و تعدد الزواج وتهميش المرأة و إحتباسها و تعليم المرأة، و في هذا العصر أنشأت الأديبة مي زيادة صالونا أدبيا في القاهرة عام 1916، وعاشت حياة مستقلة حرة، و كذلك درية شفيق لها دور مهم جدا في خلق الوعي عن قضايا حقوق النساء. و كذلك أمينة سعيد التي حاربت لتحرير المرأة المسلمةو لحقوقها و لتقويتها و لتثقيفها.

[11] محمد عبده، تفسير المنار ج2 صـ 375

ظهور الكاتبات في لبنان

و في هذه الحقبة شهدت لبنان ظهور مجموعة من النساء الكاتبات اللاتي لم تكن أعمالهن مكتوبة من زاوية نسوية متميزة و لكن يستحق في أن تعد مجموعة ثانية داخل الثقافة الأدبية الوطنية لذلك الوقت، سيطرت الحرب الأهلية اللبنانية 1975-1990 على كتابتهن، و من بين النساء اللاتي اشتهرن في هذه الحقبة إميلي نصر الله، التي كانت روايتها الأولى "طيور أيلول" 1962 في جزء منها سيرة ذاتية، و تتحدث عن قدر النساء اللاتي يردن طريق الاستقلال في العالم الحديث و كوليت خوريو ليلى بعلبكي، و أعمالهن جلبت لهن إزعاجا لكسرهن الحدود المقبولة للكاتبو بخاصة المرأة الكاتبة للنشر في ذلك الوقت. و رواية كوليت خوري "أيام معه" 1958 تتحدث عن علاقة بين امرأة شابة و رجل أكبر منها سنا، يسود اعتقاد بأنه الشاعر السوري نزار قباني، صـ 218 و هو موضوع نجد له ترددا في رواية بعلبكي "الآلهة الممسوكة" 1960، و أشهر أعمال ليلى بعلبكي هي روايتها الأولى "أنا أحيا" 1958 التي تتحدث عن مكانة النساء في العائلة، و أيضا بالتحديد قصتها القصيرة "سفينة حنان إلى القمر" 1964، التي اعتقلت بسببها لتطاولها على الأخلاق العامة.

و في هذه الحقبة أسهمت مجموعة النساء الكاتبات في لبنان خلال الحرب الأهلية 1975-1990 مثل غادة السمان، و حنان الشيخ، و إميلي نصر الله و ليلى عسيران، و ديزي الأمير، و كلير جبيبلي، وإيتيل عدنان و عدد من الكاتبات الأخريات جمعن بين الصحافة و الكتابة الإبداعية سبيلا لكسب العيش. و ربما غادة السمان هي أشهرهن و هي سورية المولد، و درست بالجامعة الأمريكية في بيروت و لندن قبل أن تستقر في بيروت عام 1969، حيث كانت قد بدأت كتابة القصص القصيرة و المقالات و الشعر قبل عقد، و يتحدث كتابها "بيروت 75" عن الحرب الأهلية اللبنانية. و تبع هذا الكتاب "كوابيس بيروت" 1976 و هو يعتبر من أهم و أقوى أعمالها

وبسبب بعض أعنف القتال في لبنان قد غادرت إلى باريس و من هناك استمرت الكتابة والنشر. وبين أعماله المتأخرة روايتها "ليلة الميار" 1986و الرواية المستهلة 1997 التي تسجل زمنيا بلوغ فتاة في دمشق هي تتحدث عن أهوال الحرب الأهلية و على الرغم من أنها ذات اتجاه نسوي لكن تعبر عن جميع جوانب الاضطهار سواء كان في القضية الفلسطينية أو وضع المرأة في الشرق الأوسط و بشكل عام القمع الاجتماع و السياسي في الشرق الأوسط.

و حنان الشيخ هني الكاتبة لحكايتي شرح يطول موضع دراستنا سوف نناقش عنها في الفصل القادم، إنشاء الله

ووصلت إميلي نصر الله إلى الشهرة بروايتها التي تحتوي جزئيا على سيرة ذاتية "طيور أيلول" 1962، و تتعامل الرواية مع موضوع هجرة النساء من قرى لبنان للبحث عن دراسة أو عمل، و فازت هذه الرواية عدة جوائز، و معظم قصص قصيرة لها و رواياتها متعلقة بالحرب الأهلية. هي كاتبة قصة قصيرة أكثر منها روائية و هي عراقية الأصل و أصدرت مجموعتين قصصيتين عن الحرب اللبنانية الأهلية و هما "في دوامة الحب والكراهية" 1979 ، و عود للبيع 1981. فإن تأثير الحب أيضا انعكاس على أعمال روائيين معاصرين من لبنان، أشهرهم إلياس خوري 1948و رشيد الضعيف 1945و و صفت أعمال هذين الكاتبين على نحو متباين ب"الحداثية" أو حتى ما بعد الحداثة و هي تقع بلا شك على الحد الفاصل لأدب النثر العربي المعاصر، و رواياتهما تعكس روح و ألم لبنان التي أنهكتها الحرب بشكل يرفعها إلى صراع عالمي. ينتمي كلا الروائيين إلى الطائفة الرومانية لكن يعرف كلاهما بموقفهما اليساري السياسي. و التجزأ على المستوى الاجتماعي و الشخصي، عنصر رئيسي على الأقل في بعض كتاباتهما. [12]و تضم روايات إلياس خوري "الجبل الصغير" 1977 والوجو البيضاء و أبواب

[12]بول استاركي، الأدب العربي الحديث، صـ248

المدينة و رحلة غاندي الصغير و مملكة الغرباء و مجمع الأسرار و حديث يالو، و تشتهر أعمال خوري بصفة رئيسية ب"حضور المؤلف".

و أما رشيد ضعيف له ديوانان للشعر و شهرته بنيت على رواياته الست لكن أقوى أعماله "عزيزي السيد كواباتا 1995، و هي عمل ينتمي بوضوع إلى التقليد العربي الحديث "السيرة الذاتية بوصفها عملا متخيلا[13]

[13] نفس المرجع صـ249

الفصل الثاني

نبذة عن حنان الشيخ

يثير اسم حنان الشيخ عند كثير ممن يعرف أعمالها غير قليل من القلق و التوجس، إذ أنها مثال كتابة نسائية متمردة تهجم على المحظور الجمعي لدى الجمتمعات العربية و تخترق الزوايا المظلمة فتضيئها بمصباح غاية في الوضوح، يصل إلى درجة التصريح بكلمات و مشاهد محظورة، كما سنرى. هي كاتبة إشكالية تثير المتلقي بأسئلة دون إجابات و تصدمه بمشاهد غير اعتيادية. و هي لاتخفي جرأتها بلغة مموهة كلغة قرينتها أحلام مستغنامي مثلا، بل تجمع إلى جرأة الموضوع صراحة العرض و غاية البوح دون مواربة، و هو ما لا يستسيغه الكثيرون، ولا سيما حين يكون صادرا من امرأة لا من رجل.

و حنان الشيخ قليلة النتاج مقارنة بغيرها من الكاتبات العربية، فعبر مايقارب 35 عاما قدمت ست روايات و مجموعتين قصصيتين، قد بدأت بواكير نتاجها الأدبي برواية انتحار رجل ميت 1967. وقد يكون غريبا أن تعرف الكاتبة بإبداعها عبر رواية عن رجل ما، لكن حنان الشيخ آثرت أن تسرد بلسان رجل، بداية خوفا من أن يتهمها القراء بأنها تكتب تجربة ذاتية تنتهي كما انتهت غيرها من الكاتبات عن تجربتها الذاتية. تقول حيث قررت أن أكتب رواية، خفت أن أكون واحدة تتكلم عن تجربتها و لذلك تكلمت بلسان رجل [14] لكن حنان خلعت قناعها الذكوري بعد هذه الرواية، وقدمت أعمالا نسائية بطولة و سردا بداء من فرس الشيطان 1975 مرورا بحكاية زهرة 1980 و مسك الغزال 1985 ثم بريد بيروت 1992.

[14] - يسرى الأمير، حوار مع حنان الشيخ، مجلة الآداب ع 7-8 بيروت 2000، ص 84

و على الرغم من أن روايتها الأولى "انتحار رجل ميت" 1967 كتبت و نشرت حين كانت في القاهرة لكنها لم تحظ باهتمام نقدي جاد، إلا بعد نشرها رواية "حكاية زهرة" 1980 التي تتعامل مع موضوعات جنسية في سياق الحرب الأهلية ذاتها، و منع الكتاب في دول عربية عدة لمعالجته الصريحة موضوعات جنسية، و لاحقا نشرت مجموعتين قصصيتين وعددا من المسرحيات التجريبية و أيضا نحو ست روايات. من بين هذه الروايات مسك الغزال التي تتحدث عن العلاقة بين المغترب و المجتمع المحلي العربي و تتحدث بريد بيروت 1996 عن العودة إلى ما بعد الحرب اللبنانية. أما رواية إنها لندن يا عزيزي 2000 فهي عن حياة الغربة العربية في العاصمة الغربية. وضمن السكن الطويل لحنان الشيخ في لندن ترجمت كتبها أحيانا إلى الإنجليزية حالما تصدر تقريبا. و تتهم أحيا بأنها تكتب و عينها على السوق الإنجليزية كما هي الحال مع السوق العربية لا أفهم لماذا ينظر إلى ذلك على أنه مدعاة لشجبها حتى لو كان ذلك صحيحا.[15]

وفي هذه الأعمال تكشف الكاتبة بتفاصيل دقيقة عن علاقة المرأة العربية بجسدها و بالآخر زوجا و عشيقا و والدا، و تقدم صورا من الاضطهاد و العنف الذي تلقاه المرأة في المجتمع، وما ينتجه ذلك العنف من سلوك شاذ تجد المرأة نفسها مضطرة إليه استجابة لواقع لا يسمح لها بالتمتع بإرادة حرة. و النماذج النسوية التي قدمتها حنان متنوعة متعددة، إذ كان العنصر اللبناني غالبا عليها بحكم انتماء الكاتبة، و كذلك نجد عناصر أخرى مختلفة، مثلا الخليجية في مسك الغزال، و عراقية و مغربية في إنها لندن يا عزيزي و أمريكية أيضا في مسك الغزال.

إذا كانت المرأة قد صورت في أغلب هذه الروايات بصورة الضحية المضطهدة، فإن حنان لم تقع في إشكالية هجاء الآخر يعني الرجل، و تحمليه مسؤولية وضع المرأة، و الدعوة إلى الثورة عليه حتى قتله كما تفعل نوال السعداوي مثلا. على الرغم من أن الصورة التقليدية عن

---

[15] 23الأدب العربي الحديث، بول استاركي، صـ

الأبد المستبد والزوج الخائن و التمييز بين الذكور والإناث ظلت واضحة في بعض أعمالها- ولاسيما في حكاية زهرة- إلا أنها تعي أن مشكلة المرأة أعقد من أن يكون سببها الرجل، و أن الرجل كالمرأة هو غالبا ضحية تخلف المجتمع و تأخره. بل إن الرجل في بعض رواياتها ظهر بمظهر المخلص المثالي الذي تتعلق به المرأة لينقذها من بؤسها و شقائها، كما هو الحال في فرس الشيطان و بريد بيروت مثلا. هي إذن لا تطرح المسألة على أنها صراع بل هي مشكلة ثنائية الجانب، فكلا الجنسين بحاجة إلى أي يعي ما يسببه اضطهاد المرأة من مشكلا ت يتعدى أثرها الفرد إلى المجتمع بأسره.

مسألة أخرى تجدر الإشارة إليها هنا، و هي العلاقة بين حنان و النماج النسوية التي قدمتها، بمعنى هل كتبت حنان ذاتها أو بعض ذاتها فيما قدمته من نماذج نسائية؟ و مع أنصار البنوية والنقد الحديث يرفضون هذا السؤال أساسا، على اعتبار أنه لا علاقة لنا بما هو خارج النص الأدبي في تحليلنا له، فإن تشابه حياة حنان الشيخ مع بعض بطلاتها لا سيما سارة في رواية فرس الشيطان يغرينا بإطلالة سريعة على القليل الذي تزودنا به المراجع من سيرة الكاتبة.

مولدها و نشأتها

حنان الشيخ كاتبة روائية نسوية و لبنانية و صحفية، ولدت في بلدة أرنون في جبل عامل بجنوب لبنان 12 نوفمبر عام 1945، من أم كاملة كانت فس الخامسة عشر من عمرها والأب أبي الحسن أكبر من أمها بعشرين سنة و نشأت في محافظة رأس النبع، منذ طفولتها كانت تشعر بتوق إلى الانعتاق من بيئتها المتشددة والمنغلقة عاشت حنان الشيخ طفولة مشوشة. الوالدة تركت الأسرة لتعيش مع حبيبها. الوالد في دكانه طوال اليوم. هكذا، وجدت نفسها وحيدة ومتروكة بين خالاتٍ وأخوالٍ وجيرانٍ كثيرين. الوحدة لم تكن سيئة كلها، فقد جلبت معها نوعاً من الحرية والتمرد. عاشت مع الجميع لكن على حدة.

حينما كانت في السابعة من عمرها طالبت أمها الطلاق من أبيها لتتزوج مع حبيبها محمد، ولم تهتم أمها بحنان الشيخ و فاطمة أختها و تركتهما عند زوجها السابق و لم تحاول لحق استبقاءهما معها، و بسبب ذلك لم تتمتع بالحب الأموي و لم تنل اهتماما من الأب أيضا، ووالدها في دكانه طوال اليوم و منشغل بنفسه دائما في الصلاة و العبادة قليل الاعتناء بتربية ابنتيه و هذا قد سبب في تكوينها متحررة و متمردة و مثل الطفلة الصغيرة العادية هي كانت تشتاق إلى أمها و تستغل بعدم وجود أمها لنيل التعاطف و الشفقة من الآخر، و قد أقنعت مدرس الموسيقي لحضور السينما و شاهدت "Never Say Goodbye" فيلم عن قصة الأم التي تترك ابنتها وحيدة، و هي تقول أنا كنت فخورة بأن حياتي غير مثل جيراني كانت مملوؤة بالأفلام.[16]

و عادة كانت الحرية و العزل جزءا من حياتها لا تحب التدخل في أمورها هي كانت تريد البعد عن الأب و العائلة و نهائيا قد سمح لها أبوها بالذهاب إلى صيدون للدراسة، و هناك قد سكنت مع فتاة فلسطينية ليلى خالد، قد شدتهما علاقة الصداقة بسبب الشعور بالعزلة، ليلى كآلاف من الفلسطينيين بسبب الظلم و الاضطهار الصهيوني قد نشأت في مخيم اللاجئين وحنان هاربة من العائلة، و ليلى خالد هي التي أصبحت فيما بعد أولى مرأة اختطفت الطيارة في سنة 1969م. [17]

درست الابتدائي في المدرسة العالمية الإسلامية للبنات في بيروت ثم أكملت تعليمها الثانوي في المدرستين الإنجليزية و الأهلية، و هي تفوقت في مواضيع الإنشاء. كانت تنتظر حصة الجغرافيا بسبب المعلمة ذات الشعر المفلوت والحضور الواثق. لم تكن تلك المعلمة إلا ليلى بعلبكي التي ستكون باكورتها الروائية «أنا أحيا» علامة فارقة في ثقافة المدينة وحداثتها

[16] The locust and the bird P. 6
[17] The locust and the bird p.6

الصاعدة[18].

من منطقة «رأس النبع»، حيث يقيم أهلها، راحت الصبية الحالمة تتردد إلى وسط المدينة ومقاهي شارع الحمرا. في واجهة «مكتبة أنطوان»، رأت الطبعة الأولى من «أنا أحيا»، وهي توصل وجبة الغداء لوالدها في سوق سرسق. مثل الأصوات التي كانت تسمعها، كان العنوان يدعوها إلى أن تعيش حياة مماثلة لبطلة الرواية. لاحقاً، ستصارح أباها المتديّن بأنها كانت تضع الحجاب في حقيبتها لا على رأسها، وستُدركأنها ـ مثل أمها ـ مدعوّة للخروج من بيئتها الضيقة.

و كانت في ستة عشر من عمرها بدأت تنشر كتاباتها في جريدة «النهار». من مقالاتها وتحقيقاتها الثقافية في مجلة «الصياد»، جمعت بعض النقود كي تقنع الوالد بأن يسمح لها بإكمال دراستها العليا في مصر.

بعد سنتين، كانت حنان الشيخ في الثامنة عشر من عمرها و قد حكى لها طالب لبناني بأن هناك مدرسة في القاهرة لا تصر على علم الهندسة و الرياضي، و لأجل القبول في هذه المدرسة هي كانت بحاجة ماسة إلى الفلوس، تقول حنان الشيخ "لجمع الكفاية من المال أنا طلبت من محررين في المجلات و الجرائد الأدبية لمنح الفرص لي لإجراء مقابلة صحفية تلفزيونية مع السياسيين بخصوص حياتهم الشخصية و الحب الأول و قدمت أمامهم المقالات التي كنت كتبتها و قد تم نشرها في صفحة الطلبة لجريدةما. خلال شهرين قد أجريت المقابلات الصحفية الكثيرة و جمعت الكفاية من المال. و هي تقول بأنني طلبت من والدي الإذن للذهاب إلى القاهرة و أريت المال و قرأت حديث النبي صلى الله عليه و سلم "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" و كما قال "اطلبوا العلم و لو بالصين".

---

[18] جريدة الأخبار، حسين بن حمزة، 13 كانون الأول 2011

قد آذنها أبوها للذهاب إلى القاهرة انتقلت إلى القاهرة لدراسة "التوجيهية" و كذلك درست الصحافة في الكلية الأمريكية للبنات في القاهرة من بين سنة 1963 و 1965اتفقت مع الراحل جورج ابراهيم الخوري على الكتابة في المجلة من القاهرة، وأعطاها أسماء بعض الكتاب المصريين هناك. نشرت بعض المقالات في «روز اليوسف». كانت في التاسعة عشرة، ومغرمة بروايات نجيب محفوظ ويحيى حقي. لكن إحسان عبد القدوس هو من وقع في غرامها في تلك الفترة.

كتابها الاول كان مخطوطة أضاعتها، عنوانها "مهلاً يا أماه" وكتبتها عندما كانت في الرابعة عشرة. "كانت طفولتي صعبة وأحسست باطمئنان عندما كنت اقرأ. اول كتاب قرأته كان القرآن الكريم. الكلمة المطبوعة تشعرني ان لي علاقة بها، وكنت استعير كتب كامل كيلاني ومجلة "سندباد" من بيت الجيران. كنت اعتقد ان الكتب تخلق مثل الشجر وأدمنت على القراءة التي باتت ضرورية لي اكثر من اللعب والصداقة مع البنات، وتوسع افقي كثيراً بها".[19]

تعتقد ان جرأتها في الكتابة تعود الى طفولتها: "لم اعش في بيت نموذجي وافتقرت الى العائلة المتماسكة.ابي كان مثالياً وأخلاقياً ولكنه كان غريب الاطوار.احس ان لا حق للمجتمع عليّ لأنه لم يعطني شيئاً . نشأت وحدي وصنعت نفسي بنفسي. كأن قدري قال منذ البدء: "هذه ستكون كاتبة". احس اليوم ان كتابتي تتغير. مررت بمراحل كثيرة منذ الكتاب الاول، وربما جعلني عيشي في الغرب افكر ان كتابة الرواية طريقة حياة وليست فقط تعبيراً . كنت انتقي المواضيع مما يمسني مباشرة، واليوم اثير تساؤلات عالمية لا محلية فحسب. لم يعد يضايقني عيشي بعيداً عن لبنان، وأحس انني استطيع العيش في اي مكان".[20]

---

[19] دنيا المرأة، تاريخ النشر 12-10-1992جريد الحياة، مودي بيطار، صـ 53

[20] نفس المرجع صـ 54-55

و كانت في ستة عشر من عمرها بدأت تنشر كتاباتها في جريدة «النهار». من مقالاتها وتحقيقاتها الثقافية في مجلة «الصياد»، جمعت بعض النقود كي تقنع الوالد بأن يسمح لها بإكمال دراستها العليا في مصر. انتقلت إلى القاهرة لدراسة "التوجيهية" و كذلك درست الصحافة في الكلية الأمريكية للبنات في القاهرة من بين سنة 1963 و 1965اتفقت مع الراحل جورج ابراهيم الخوري على الكتابة في المجلة من القاهرة، وأعطاها أسماء بعض الكتاب المصريين هناك. نشرت بعض المقالات في «روز اليوسف». كانت في التاسعة عشرة، ومغرمة بروايات نجيب محفوظ ويحيى حقي. لكن إحسان عبد القدوس هو من وقع في غرامها في تلك الفترة.

عادت إلى بيروت سنة 1966 و بعد أربع سنوات هي بدأت تشعر بالاختناق في البيت و تحلم بالحياة المختلفة، هي قد تعبت من الحياة مع العائلة تحتوي الجدة و الأب الذي كان صوفيا ويخاف من ابنته سوف تدخل جهنم بسبب رفضها أداء الصلاة و تغطئة الرأس و ارتداء ملابس طويلة الأكمام.

و بأسرع ما قد أصبحت كفيلة لتحمل مؤوناتها و تكاليف ويومية، غادرت البيت و سكنت في سكن خاص للنساء، و بدأت تقضي حياة حرة مستقلة، بعيدة عن العائلة. و من بين سنة 1966 و 1975 بقيت في بيروت و كانت تعمل كصحفية و محررة في مجلة الحسناء –مجلة نسوية- و ثم اشتغلت بمجلة النهار و كذلك كانت تعمل كمذيعة تلفزيونية قبل أن تصبح كاتبة القصص والروايات.

زواجها

كانت حنان في الثالثة و العشرين من عمرها تقضي حياة مستقلة بعيدة عن العائلة و تشتغل بوظيفة صحفية فوقعت في الحب مع شخص مسيحي و قررت الزواج.

تزوجت حنان الشيخ سنة 1970 مع المهندس و رجل الأعمال فؤاد المعلوف، تقول حنان الشيخ "لو تزوجت غيره كنا انفصلنا، ليس هناك رجل عربي يقبل بأن تعطي زوجته هذا الوقت للكتابة و تكون جريئة فوق ذلك. فؤاد ناجح لذلك لا يتضايق وهو مرهف و أعجب لأنه لم يصبح كاتبا أو شاعرا يقرأ كتبي بعد نشرها و يقول، إنني أبالغ و أزيد ملحا و بهارا. في علاقتنا مساواة و هذا الأهم. ابنها طارق في التاسعة عشرة يدرس الاقتصاد و جمان في السابعة عشرة و لاتزال طالبة " يحسبان أحيانا أنهما أمي و أبي لأنهما عمليان أكثر مني، ويتذمران عندما يجدانني نزقة أحيانا".[21]

هي تزوجت مع الرجل المسيحي سريا، و لم تخبر أحدا حتى أباها و قد علم من زواج ابنته لما هنأه أحد من أصدقائه به و أعطاه جريدة لقراءة نبأ زواجها كان قد نشر في الجريدة التي كانت تعمل فيها، "تتزوج ابنتي حنان فجأة، و اسمع بأن الحاج علم بزواجها من معارف قرأوا له الخبر في الجريدة التي تعمل بها. يلطم وجهه و يبكي لأنها تزوجت خفية عنا." [22]

كان أبوه شخصا شيعيا متدينا و لا يمكن له أن يسمح ابنته بالزواج مع مسيحي، و هي قد أظهرت لونها الأصيل بكونها متمردة من القلب، و الزواج مع مسيحي كان بمثابة غير مستحيل للقبول. و بالعكس عندما علمت أمها عن العلاقة الودية مع الشخص المسيحي كانت متحمسة و قد زغدردت و رقصت و تنفست بالراحة و كانت حنان في الثالثة و عشرين سنة من عمرها. هي تقول " عندما لقيت بها بعد شهرين من الزواج قد أخذتني بين زراعيها وحاولت رفعي ببالغ الفرح و السرور" [23]

---

[21] نفس المرجع صـ 54
[22] حكايتي شرح يطول، صـ 329
[23] The locust and the bird, P. 5

كان زواج حنان الشيخ بمثابة ظفر لأمها وقد انتصرت على كل من يقول بأن حنان و أختها فاطمة لن تجدا عريسين لهما بصفات كاملة بسبب خلفياتها و كذلك بسبب الذنب الذي قد ارتكبتها والدتها، أن والدتها كاملة متزوجة قد وقعت في الحب مع شخص آخر و تركت بيتها للتزوج معها سوف أذكرها بالتفصيل.

تقول حنان، بأنني ما كنت فتاة مناسبة للزواج. كنت متحررة و مستقلة تماما، في الثامنة عشر من عمري سافرت منفردة إلى القاهرة للدراسة، و و قعت في فضيحة هناك، كان لي علاقة غرامية مع روائي مصري معروف وهو كان متزوجا.

بقيت في بيروت غير أن زوجها يقيم في المملكة العربية السعودية حيث كان يزاول تجارة كرجل عمل، و بعد ذلك عاشت متنقلة بين لبنان و الخليج و لندن كانت تسافر إلى السعودية للقاء زوجها و قضاء الوقت معه. حنان الشيخ غادرت بيروت سنة 1976 بسب الحرب الطائفية الأهلية في لبنان و ارتحلت إلى المملكة العربية السعودية لتسكن مع زوجها و بقيت هناك إلى سنة 1982، و نهائيا هاجرت إلى لندن حيث تقيم حتى الآن.

مؤلفاتها و أعمالها الأدبية

قد أنتجت حنان الشيخ ست روايات و مجموعتين لقصص قصيرة و هي تعتبر قوة رئيسية في الأدب العربي المعاصر، هي من رواد الكاتبات النسائية المعاصرة في العالم العربي، وقد نالت كتاباتها نجاحا مرموقا في الولايات المتحدة الأميريكية و أوروبا. رواياتها كلها كتبت بالعربية قد تم ترجمتها إلى واحد و عشرين لغة أجنبية من بينها الإنجليزية و الفرنسية و الهولندية والألمانية و الدنماركية و الإيطالية و الكورية و الإسبانية و البولندية.

لم تنل روايات حنان الشيخ من الشهرة والانتشار في العالم العربي ما نالته في الغرب. و يعود السبب إلى الجرأة المتناهية التي صبغت كتاباتها، و لا سيما فيما يتعلق بصورة المرأة العربية

بشكل عام و الخليجية بشكل خاص. و هذه الصورة جاءت موافقة لما يتخيله الغرب عن المرأة العربية و ما تعانيه من جهل و تخلف و كبت و قهر، بالإضافة إلى امتلاء رواياتها بالمشاهد الجنسية الصريحة و هذه الجرأة في الكتابة لم يعتد عليه الملتقي العربي لا سيما أن كاتب هذه النصوص أنثى، لذا فقد صودرت أعمالها الروائية في بعض بلدان العربية.

كما عرضت روايتها "أوراق زوجية" على مسرح "هامستد" في لندن، بالإضافة إلى رسالة ماجستير في الأدب المقارن بين روايتها "بريد بيروت" و رواية " لون ارجواني" لأليس وولكير، باعتبارهما مكتبتين على شكل رسائل متبادلة.

كتبت أول رواية لها في عمر التاسع عشر، أن روايتها الأولى "انتحار رجل ميت" 1967 كتبت و نشرت حين كانت في القاهرة لكنها لم تحظ باهتمام نقدي جاد، تقف الروائية اللبانية حنان الشيخ في مقدمة الروائيات العربيات اللواتي يمتلكن الشجاعة الثقافية فيها في مجمتع مازال تعاني من معضلة التحليل العلاني أو العلمي لقضية الجنس مجمتع استهلاك الجنس في تكتم شديد لكنه لايسرف في البحث عن المشاكل المصاحبة لهذه الظاهرة.

وعن تجربتها في كتابة هذه الرواية تكشف واقع المناخ الاجتماعي والثقافي الذي نشأت فيه قائلة: «تأثرت بالمناخات الأدبية السائدة في لبنان في الستينيات، ولا أخفي أنني انبهرت ببعض الكتب ولكن من دون قراءتها بعمق، ولذلك فإن الكتب التي نالت إعجابي قليلة جدّ ًا منها كتاب «أنا أحيا» للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي. كذلك قرأت في طفولتي كامل كيلاني وبنت الشاطئ، وآنذاك كنت أفكر لماذا اسمها بنت الشاطئ؟ أكثر مما كنت أفكر فيما كتبته.. لم أكن ميالة للتعمق في الأشياء المكتوبة لكنني كنت أشعر بأنني يجب أن أكتب، وأن لديّ بعض الأشياء التي يجب أن أقولها. وفي ذلك الوقت كنت أخجل من أن يعرف الآخرون حقيقة ثقافتي، وكنت أحرص على إعطاء الآخرين صورة بأنني قارئة مثقفة مطلعة على حركة الأدب والفكر ولكن

بالواقع لم أكن هكذا أبدًا.. فقط كنت أحب الكتابة، حتى نجيب محفوظ قرأته. بعد روايتي الأولى كنت أجرب القراءة ولكن سرعان ما كنت أمل ذلك» [24]

و تقول حنان الشيخ، في "انتحار رجل ميت" كنت ارغب في وضع جدار بيني وبين قلمي لكي لا اكتب عن نفسي. كان بلا قلب. اهتممت بالجملة والجو كأنني اقلد البرتو مورافيا او انسي الحاج الذي تأثرت بلغته ونظرته الى المرأة. وتأثرت بتجربة شخصية فكتبت عن فتاة صغيرة تحب رجلاً في الاربعين لكنني اخترعت الوقائع. عرفنا في ذلك الحين فورة نسائية وكلما كتبت واحدة قالت: "انا المرأة". اردت ان اكتب رواية لا ادباً نسائياً او معاناة شخصية فابتعدت عن الحقيقة. كنت تحت وطأة تأثير الوجودية وجو مقهى "الهورس شو" والاشياء الجديدة التي احسست عندما كتبت عنها انني اقتربت منها. فنجان الشاي وملعقة السكر كانا غريبين عني في طفولتي، وعندما وصلت الى مثل هذه الاشياء الصغيرة بهرت بها واحسست انني ارتقيت درجة في المجتمع. كنت احب ذلك، لكن "انتحار رجل ميت"لم يكن حقيقياً . وصف الفتاة للرجل يشبه فنجان الشاي. بورسليني بارد وان كان براقاً ." [25]
لم تعد إلى القاهرة لإكمال دراستها. فاستأنفت النشر في «النهار»، وعملت في مجلة «الحسناء» لكنها لم تهجر الرواية. أصدرت باكورتها سنة 1970. حينما كانت تقيم في المملكة العربية السعودية هناك، كتبت روايتها الثانية «فرس الشيطان» عام 1975 التي تمر فيها الأيام متشابهةً على بطلتها اللبنانية «سارة». ضمت الرواية شذراتٍ من سيرة شخصية، وعناصر شخصية لوالدها الذي كان رجلا متدين، و جوانب قصة حبها و بالتالي زواجها.

24حنان الشيخ: (حوار) مع جريدة الشرق الأوسط، لندن، ع21 مارس 1995، ص 17،16.

25 ، الكاتب: مودي بيطار12/10/1992مجلة الحياة

حكاية زهرة

قد جذبت اهتماما عالميا عندما تم نشر روايتها حكاية زهرة عام 1980 عشية الحرب الأهلية اللبنانية، الحرب أبعدتها مع ابنيها الصغيرين إلى لندن . كتبت «حكاية زهرة» عن الحرب الأهلية في لبنان، قد رفض جميع الناشرين و الموزعين للكتب نشرهذه الرواية و لذلك قامت بنشرها على مكلفاتها الخاصة، ثم تم منعها في الدول العربية لأنها تعالج موضوع الجنس ،التي وضعت اسمها في مقدمة المشهد الروائي اللبناني. أعادتها الرواية إلى مناخات طفولتها منعطفاً حقيقياً في تجربتها.

رواية حكاية زهرة هي عن الحرب اللبنانية الأهلية و هي تحكي قصة امرأة حائرة "زهرة" قد حصلت لها الفرصة للهروب من عالم الاضطهاد، الرواية تتحدث عن امرأة في عالم الرجال، حربهم وسلامهم، أديانهم و قوانينهم. حكاية امرأة إذا كانت صاحية و تعيش أن أنها تحلم أنها تعيش. و في حملها غلبا ما تسيطر الكوابيس. حكاية امرأة في عالم يرعبها يهددها، يلاحقها بوحشيته الذكرية حتى الرمق الأخير مثل غول الطفولة، حكاية تعصر بصدقها عصرا. من إفريقيا إلى لبنان، من الجنوب إلى بيروت تقودنا حكاية زهرة إلى نهاية عالم الخيال. قد وصفت مجلة بوسطون غلوب حكاية زهرة أصلية و رشيقة و مكتوبة بأسلوب قوي و معان قيمة و توضح المأساة الإنسانية و الشخصية للحرب، و صفتها مجلة صوت القرية village voice كلاسيكية بكل المقاييس، فقد وصفها الكاتب نزيه أبو نضال في كتابه " تمرد الأنثى في الرواية العربية" أنها من الأعمال الروائية النادرة التي استطاعت أن تعبر عن خصوصية ذات البطلة و كذلك عن الواقع الاجتماعي، إضافة إلى تسجيل تجربة الحرب الأهلية في لبنان في سبعينات، فالرواية تنقسم إلى زمنين و طبيعيتين: قبل الحرب حيث زهرة الجنوبية في

معاناتها الذاتية و الأسرية، وصولا إلى سفرها عند خالها في إفريقيا و زواجها هناك مع ماجد، والزمن الذي عاشته زهرة في بيروت بعد طلاقها. [26]

في الحكاية، عائلة زهرة تبعثها إلى إفريقيا لاستعادة حالتها إثر عملية الإجهاض مرتين وانهيار عصبي، هي تسكن مع عمها الداعر الفاسق، و تفاديا من تحرشاته الجنسية هي تتزوج مع صاحبها. كان الزواج عديم الحب و الحنان فهي تعود إلى بيروت متورطة في الحرب. الفوضى في صورة مختلفة يواجها و هي تقع في الحب مع رجل مرة أولى لكن عشيقها هو القناص الذي يطلق النار على المارين الأبرياء و نهاية هي تصبح ضحية اصطياده.

مسك الغزال 1988 أو Women of Sand and Myrrh 1992

فائزة بجائزة ايلي للأدب

تم اختيارها من بين أفضل خمسين كتابا و الأكثر مباعا عام 1992 من قبل publishers weekly، إن مجلة عالمية Herald Tribune وصفت فنية حنان الشيخ في هذا الكتاب في أسلوبه و طريقة التحدث عن الدين و الجنسية و الزواج و الأمور المنزلية كأن هذه الأشياء كلها توجد في الواقع في الحياة الصحراوية، إن كتاباته بصورة معقدة، وقتا ما بهمسات وقتا ما بصياحات هو نداء لأجل التحرير.

أصدرت حنان الشيخ روايتها الرابعة «مسك الغزال» مستأنفةً العوالم الخليجية التي سردتها في روايتها الثانيةهكذا، أُضيفت الملية الجنسية إلى الجنس والاغتصاب اللذين حضرا سابقاً . تُرجمت الرواية إلى الانكليزية، فلاقت مزيجاً من المديح والهجوم. تقلل حنان الشيخ من أهمية الاتهامات التي يسوقها بعضهم ضد رواج أعمالها في الغرب. «أنا أكتب ما أحبه وأتقن كتابته.

[26] أبو نضال نزيه، 2004، تمرد الأنثى في الرواية العربية، صـ 239-240

لم أخترع الجنس ولا المثلية، ولا أفكر في تقديم موضوعات غرائبية تثير فضول القارئ الغربي». إقامتها الطويلة في لندن صالحتها أكثر مع تجربتها، وحررتها من التأثير السلبي لهذه الاتهامات.27 الرواية عبارة في الحقيقة عن قصص متصلة منفصلة لأربع سيدات جمعهن العيش في بلد صحراوي غير محدد – في إحدى دول الخليج -. تروي كل منهن قصتها مع المجتمع المحيط، فيبحر القاريء في أفكار السيدات، هواجسهن أخطائهن وقراراتهن، السيدات الأربعة تناضل للحياة العادية الكاملة في مجتمع لا يسمح للنساء بقيادة السيارة و المشي على الشوارع بدون الحجاب، ولو تمكنت من الحصول على أي وظيفة عمل يجب أن تشتغل بقسم خاص للسيدات فقط، في مجتمع حيث الأعمال الجنسية بسب القيود المختلفة قد أصبحت مستحوذة بصورة غير صحية. اثنتنان منهن من العرب و واحدة منهن لبنانية و الرابعة هي أمريكية، كل امرأة قد اختارت مسارا مختلفا يكشف عن مكافحتهن مع المجتمع الذكوري.

سها، سيدة لبنانية متعلمة قد تلقت علوم عالية، سافرت مع زوجها تفاديا من الحرب، وبعد، تتوق للحرية تتمتع بها في بيروت، لماذا تواجه العوائق في الأسواق لأنها تغطي رأسها ووجهها، لماذا لا يسمح لها بقيادة السيارة. تناقش الكاتبة حنان الشيخ الكبت في هذا البلد و ما يسببه ردود أفعال لدى كل سيدة مستخدمة أسلوب ما يسمى بتيار الوعي لتروي وجهة نظر كل شخصية و ما يجول في خاطرها. ليكتشف القاريء الأسباب التي قد تؤدي بزوجة و أم لطفل إلى علاقة محرّمة مع امرأة أخرى و كيف ترى نفسها بعد أن تجد أنها وقعت في المحظور. ومن ثم تنقله الشيخ إلى عقل المرأة التي تنغمس في الملذات نتيجة للفراغ و الترف و التفكك الأسري. ليرى من بعدها كيف تؤثر العلاقة الزوجية المنهارة على امرأة أربعينية و يبحث من

[27] مجلة الأخبار، حنان الشيخ: شهرزاد الجديدة تمردت عل الحكياة، حسين حمزة13 ديسمبر 2011

خلال تجاربها الغريبة في نظرة الرجل الشرقي إلى المرأة. و يختم الرحلة بقصة زواج قاصرة وطلاقها و تأثير الأمر على حياتها.

أعتقد أن الشيخ نجحت إلى حد كبير في كتابها هذا في إصال فكرتها فأسلوب تيار الوعي كان اختيارا ناجحا لجعل أصوات الشخصيات مسموعة. كما أن جرأتها على طرح موضوع المثلية الجنسية و ربطها بالكبت الجنسي و الاجتماعي في بعض المجتمعات أمر يحسب لها خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الرواية نشرت لأول مرة في 1988 اللغة كانت بسيطة أنيقة و الأسلوب سلس عدا عن بعض النقلات في ذاكرة الشخصيات و التي كانت مربكة قليلا نتيجة عدم التمهيد لها جيدا من قبل الكاتبة. المشاهد الحميمة – لا أدري إن كان يصح استخدام حميمة لوصفها – كانت مختصرة و سريعة – و هذا شيء جيد – إلا مشهدا واحدا أحسست أنه طال أكثر من اللازم. هاتان النقطتان هما أكثر ما أزعجني في الرواية.

بريد بيروت

بريد بيروت 1992 و ترجمتها بيروت بلوز 1995، صدرت في تشرين الاول اكتوبر 1992 عن "دار الهلال": "كلهم يسألونني عما اذا كانت تتطرق الى الحب. سيخيب املهم لانها تخلو منه. لماذا يحضر الحب بقوة في اعمالي؟ لانه موجود في حياتنا، واكتب عنه اذا كانت له علاقة بالاحداث. ارى ان الحب في "حكاية زهرة"كان حامضاً وغير جميل. واقعي. في "مسك الغزال"كان ناعماً جداً بمحمود درويش قال ان تعبيري كان شاعرياً ولطيفاً . في عدد "الناقد" عن شهر تموز 1992 نشرت قصة "ساحة الكاتاستروف" تعمدت فيها الكتابة بصراحة وان باختصار عن الحب. رجل يهرب من زوجته ولكنها تنجح دائماً في اكتشاف مكانه. تموت زوجته، ولكنه يحس انها تراقبه على الدوام.28" الرواية عبارة عن مجموعة

[28] مجلة الحياة، مودي بيطار 12-10-1992

رسائل مكتوبة من الشخصية الرئيسية "أسمهان" موجهة لعدة أشخاص. محور الرسائل يدور حول تأثير الحرب الأهلية في لبنان على علاقة "أسمهان" بأصحاب الرسائل وببيروت والقرية التي أتت منها.

الرواية تدور حول أسمهان الشيعية التي تنتمي إلى عائلة غنية من عائلات الجنوب، ولكنها عاشت وتربت في بيروت إلى أن توفى والدها وتزوجت امها من آخر وسافرت معه الى امريكا، لتعود أسمهان الى منزل جدها وجدتها في الجنوب
الرواية تأخذ شكل الرسائل التي تبعث بها أسمهان إلى صديقتها حياةالتي هاجرت على إثر الحرب الأهلية، وإلى جدها وجدتها وإلى الأرض والحرب، ومن خلال رسائلها تنسج خيوط حكايتها مع كل المفردات من حولها حيث تروي كيف تغيرت لبنان وكيف تحولت بيروت الى مسخ حقيقي بعد الحرب، وكيف تحولت الأراضي من زراعة الخضروات والفاكهة إلى زراعة الحشيش، وعمل الناس في معامل تصنيع المخدرات لتظهر طبقات اجتماعية جديدة صنعتها الحرب بملامحها المشوهة أسمهان التي تتقلب بين العشاق ليتركوها دائماً في لبنان وحدها حيث هي الوحيدة التي تستمرئ لعبة البقاء في لبنان مع الحرب وترفض مصاحبة كل عشاقها إلى الخارج .الرواية برغم مأساوية الصورة المرسومة للحرب، إلا أنها تحتوي على قصص تسير الابتسام، تنقل من خلالها حنان الشيخ بعض من الشخصيات الشعبية في قرى الجنوب بما تحمله من طرافة، مثل شخصية روحية وفضيلة. كما تقدم أيضاً وجهة نظر سياسية تقدم صورة للتغلغل الايراني في لبنان بواسطة حزب الله، ورغم ان الكاتبة شيعية الا انها توضح موقفها المضاد للحزب الله وتؤرخ ببساطة لنشأته واستغلاله لفقر الناس كي يكون له سطوة في الجنوب، وكيف صنع نفسه بتمويل ايران وزراعة وتصنيع المخدرات والاتجار بها .

فرس الشيطان

نشرت في عام 1975عن دار النهار للنشر والتوزيع

في هذه الرواية التسجيلية، تحكي المؤلفة، مراحل عدة من حياة شابة. تحكي تجربتها مع الطفولة غير العادية في بيت متدين كثير التعصب. تحكي تجربتها مع الحرية والنشر والزواج، ثم مع السفر إلى بلد عربي حيث الحياة مختلفة والناس مختلفون. فتجد نفسها وحيدة إلا من ملاحظات دقيقة يسجلها إحساسها وعيناها، وتجعلها تلتقي مع نفسها ووجودها للمرة الأولى.

أعمالها الأخرى المميزة

اكنس الشمس عن السطوح : 1995، دار الآداب، بيروت

امرأتان على شاطئ البحر: 2003، دار الآداب، بيروت

انها لندن يا عزيزي: 2009، دار الآداب، بيروت

عذارى لندنستان: 2014، دار الآداب

اوراق زوجية: 1989، دار الفرقان للنشر و التوزيع

ثم كتبت " وردة الصحراء " عام 1982م، ومجموعة قصص استوحتها من رحلاتها في البلاد العربية. عرضت روايتها،"أوراق زوجية" على مسرح "هامستد" في لندن.

نوقشت رسالة ماجستير في الأدب المقارن بين روايتها "بريد بيروت" ورواية "لون ارجواني" لليس وولكر، باعتبارهما مكتوبتين علي شكل رسائل متبادلة.

كتبت مسرحيتين بالانكليزية، وعُرضتا على مسارح أوروبية وأميركية بإخراج تيم سابل. أصدرت مجموعة «أكنس الشمس عن السطوح»، ورواية «امرأتان على شاطئ البحر»، قبل أن ترتاح من موضوعاتها اللبنانية، وتصدر «إنها لندن يا عزيزي». مزجت الرواية المذكورة الشرق بالغرب، لكن خياراتها لم تتغير كثيراً، فحضرت شخصية المومس العربية والمثلي العربي، إلى جوار علاقة البطلة برجل بريطاني. ثم تحررت من كل ذلك في رواية «حكايتي شرح يطول»، لتسرد حكاية أمها. أعادتها الرواية الأخيرة إلى عوالمها المحلية، لكن الترجمة والإقامة البريطانية واصلتا تعزيز حضورها الأدبي في الخارج، وإضعاف حضورها في لبنان والعالم العربي. لا تتضايق حنان الشيخ من صورتها هذه. هل لديها عتبٌ ما؟ تبتسم، وتقول: ليس لدي أيّ عتب، كما أنني لستُ مغيّبة. أنا اسم قديم، وهناك أسماء جديدة ينبغي أن تأخذ حقها.لستُ طماعة، ولا أريد أن آخذ ما هو لي ولغيري.

الباب الثاني

القضايا النسائية في رواية "حكايتي شرح يطول"

الفصل الأول: قضية الزواج و الطلاق

الفصل الثاني: قضية التمرد و الحرية المرأة

الفصل الثالث: قضية التعليم للمرأة

الفصل الأول

قضايا الزواج والطلاق

دراسة قضايا نسائية في رواية حكايتي شرح يطول لحنان الشيخ

حنان الشيخ كاتبة هي مثال لكتابة نسائية متمردة، تحفر في المحظور الجمعي لدى المجتمعات العربية، و تخترق الزوايا المظلمة فتضيئها بمصباح غاية في الوضوح، يصل إلى درجة التصريح بكلمات و مشاهد محظورة. هي كاتبة إشكالية تثير المتلقي بأسئلة دون إجابات وتصدمه مشاهد غير اعتيادية. هي لا تخفي جرأتها بلغة مموهة كلغة قرينتها أحلام مستغنامي مثلا، بل تجمع إلى جرأة الموضوع صراحة العرض دون مواربة ، هو ما لا يستسغيه الكثيرون، ولا سيما حين يكون صادرا من امرأة لا من رجل.

هي تقول "أنا لا أتعمد مناصرة المرأة والكتابة عنها، لكن هذا حال المجتمع، وأنا أكتب عن المجتمع» تبرر حنان تركيز رواياتها على المرأة، بدءاً من «حكاية زهرة»، وانتهاء بـ«حكايتي شرح يطول». حيث لاقت «حكاية زهرة»نجاحاً كبيراً، وترجمت إلى لغات عدة. وفي الوقت الذي تعرضت فيه الشيخ إلى أحداث الحرب الأهلية في لبنان، توقفت طويلاً أمام زهرة، والعنف المزدوج الذي يقع على المرأة، بوصفها إنساناً أولاً، وبوصفها امرأة تالياً : «أنا امرأة، أستطيع تفسير وشرح عالم المرأة، والإحساس بها، ولكني لا أناصرها دوماً، وفي كتابتي عنها، لست صديقتها دوماً، فأنا أنتقدها، ولكني أكتب عنها لأني أعرف المجتمع الذي تعيش فيه المرأة العربية". [29]

[29] مها حسن، مجلة المستقبل، 21 مارس، 2010

هذه الحكاية كتبتها الكاتبة حنان الشيخ، لأنها كارثة و قصة لكل مرأة في لبنان و كذلك ملهمة لها لأن كاملة أم الكاتبة كانت جريئة و متشوقة. هي تحلم بالذهاب إلى المدرسة و لم تكمله، و هي لجأت إلى السينما و تأخذ كل شيئ منه و كانت الأحلام التي جعلتها حية ناشطة و قوية وحاربت المجتمع الذكوري بكل جرأة و شجاعة. هي كانت تحلم بالحياة المملوؤة بالرخاء و الثراء ليست فقط بالنسبة للممتلكات المالية بل بالحب و الشفقة. هي كانت تحلم بالرومانسية التي فقدتها في الزواج الأول بسبب الفرق الكبير بين أعمارها و زوجها و ما إن وجدت الخيار قد سارعت إليه و تمتعت بالحياة السعيدة التي كانت تحلم بها.

هناك عدة قضايا نسائية قد ناقشتها الكاتبة في هذه الرواية، و هي بنفسها قد صرحت بها في حوار بأن حكاية أمها حكايتي شرح يطول توجد ترجمتها باسم The Locust and The bird و هي تقول بأن الجراد تعبير عن المجاعة، والجوع، و الهدم، والحزن و كذلك كلمة الطير تعبير عن الربيع و الحب و الأمل و الأغنية و كل هذه تعبير عن حياة أمي، و في إجابة عن سؤال هي تسرد قائلا بأن هذه الحكاية عالمية حيث هي تتحدث عن العائلات كل شيئ ما يحيط بها، مثل الحب و الطلاق و العلاقة الجنسية و الهجر والفقر و فقدان العدل و هي تقول أكثر مهما هي عن العفو.

حيث تركت كاملة ابنتيها مع زوجها السابق، و لذلك كانت حنان الكاتبة إحدى ابنتيها غاضبة عليها، و الغضب عليها دفعهالاستماع من أمها قصتها و اكتشفت الكاتبة حقيقة أنها أخذت من أمها الكثير من بينها الرغب بالقص و جموح الخيال و الحس الساخر، و أيضا التمرد على واقعها. لا عجب اذن، إن أطلقت عليها بعض الصحف في الغرب، لقب "شهرزاد الجديدة".

حكايتي شرح يطول احتفال بالحياة والموت و شرح للنفس و طبيعتها، برغم السرد التفصيلي الذي قدمته الكاتبة في الرواية لحياة كاملة، إلا أنها لم تخلت من التحليل، فقد تمكنت بسلاسة من توضيح العوامل التي كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصية كاملة. ربما تكون كلمة «الحرمان»

هي العنوان الملائم لحياة كاملة، الحرمان من كل التفاصيل الدنيا للحياة. فقد بدأ الأمر بالحرمان من الأب، ثم الحرمان من الاستمتاع بالأكل وهو ما جعلها فيما بعد تعاني من شراهة دائمة حتى أن أهلها كانوا يطلقون عليها «المفجوعة». ثم كان الحرمان من التعليم وهو ما جعلها تشعر بالدونية، حتى تمكنت من التحايل على أميتها بابداع فطري جعلها تمتلك دفترا لأرقام الهواتف استبدلت فيه الأسماء برسومات تدل على الأشخاص. و الحرمان من اختيار الزوج، الحرمان من كل شيئ تحلمه الطفلة و ثم الفتاة لكنها لم تنس أبدا هذا الشعور بالحرمان، و بعد الزواج لما صلحت حالها و ساغ بالها فكانت تتصدق على الفقراء وتغدق عليهم وعندما لم تجد ما تقدمه للكفيف بدأت تغني له. " و كان الحي بأجمعه يعلم بتصدقي على الفقراء و الشحاذين من طعام وملابس داخلية لدرجة أن زوجي كتب على ورقة علقها على الباب: ممنوع الشحاذة في هذا البيت" و لم يكن الشحاذون يعرفون الكتابة و القراءة، فبقيت الورقة معلقة يوما أو يومين، قبل أن ينتزعها شقيقي العابس و يرميها أرضيا.[30]

ثم أن الحرمان سرى على كل شيء حتى تحولت الحياة بأكملها إلى زنزانة كبيرة مغلقة بالقوانين الأبوية المجتمعية الصارمة التي تمنع الخروج وتعتبر البهجة إثما وتحاسب الهمسة والكلمة. لم تجد كاملة مخرجا من هذا سوى عن طريق الوقوع في حب السينما، أتاحت لها السينما امكانية العيش في حلم يقظة طويل كانت فيه إحدى النجمات. تحولت السينما لكاملة إلى حياة موازية تعويضا عن حياة مقفرة. لم يهدأ عشقها قليلا للسينما إلا عندما تزوجت من محمد فبدأ التحقيق الفعلي للأحلام. السينما قد أثر بصورة ملحوظة في حياة كاملة "ووجدتني إثر تلك الليلة (ليلة حضرت الفيلم مع زوجها و شقيقها العابس نتيجة حيلة في منتهى الذكاء) أموت شوقا لأكون محمد. أرى نفسي بائعة التفاح و هو الأرستقراطي الذي يقرأ و يكتب. أتمنى لو أتحدث مع كما كنا نفعل، حول البركة، عن الأفلام و الممثلين، فأقول له إن السينما علمتني الحياة،

[30] الرواية صـ 132

وأفكر أن بائعة التفاح لم يتسن لها حضور أي فيلم، و إلا لكانت تعلمت أن تكون أرستقراطية من تلقاء نفسها، فالسينما أدخلتني و لا تزال تدخلني إلى مدرسة من نوع خاص. تعلمني التاريخ الجغرافيا، تحدثني عن بلاد اسمها أوروبا، عن الحرب، تعلمني فن الكلام، فن الموض والملابس، تدخلني إلى منازل فخمة و متواضعة، تعرفني بسكانها، فأتمنى لو أعيش مثل بعضهم، ثم أحمد الله أني أعيش أفضل من البعض الآخر. التقي على الشاشة بمن هي مثلي، وبمن هو مثل شقيقي العابس، و من هو مثل زوجي." [31]

قضية الزواج و الطلاق

الحب والزواج

حكايتي شرح يطول هي رواية في صورة سيرة ذاتية لكاملة، كما ذكرت سابقا بأن حياتها كانت عبارة عن الحرمان، لم تتمتع بنعمة الطفولة قد واجهت مشكلة الجوع في الطفولة، لأن أباها كان قد هجرها مع أمها و أخيها بدون أي عون مادي، و فرارا من مشكلة الجوع سافرت إلى بيروت للجوء في بيت أختها لكن ما بلغت العاشرة من عمرها أن زوجت مع زوج شقيقتها التي توفيت في كهولتها هي تقول"يتحول بيتنا بين ليلة و ضحاها إلى بكاء و عويل، فشقيقتي ماتت إثر حمى كاوية. تسممت من عضة الجرذ المختبئ بين كومة من الأخشاب، ووسط صناديق الكرتون الفارغة التي كان يأتي بها زوجها لتستخين ماء القازان" [32]

سوف أناقش كيف تجبر كاملة القاصرة على الزواج و هي في الثالثة عشر سنة من عمرها؟ وهي كانت في العاشرة و تم قرانها بخدعة و بدون الإفادة بها؟ و كذلك أناقش خلال ذلك هي

[31] الرواية صـ 133
[32]. الرواية صـ 47

كيف وقعت في غرام مع شاب يكبر منها بخمس سنوات و هي تستمر لقاءه حتى بعد زواجها القسري. و كيف هي تحارب مع أمها و أهلها لعدم تقييدها بسلاسل الزواج؟ و تبدأ المحنة لكاملة بصورة أكثر قاسية من قبل، توفيت شقيقتها و خلفت الصبيان الثلاثة، و كاملة كانت تساعد أمها في تدبير شؤون أولاد شقيقتها و قضاء حاجاتهم، خوفا من يشعروا بغياب أمهم، و خاصة الصغير الذي لم يبلغ عاما و نصف، و كانت خديجة زوجة شقيقها ابراهيم ترضعه و ترعاه وكأنه ولدها. خديجة كانت امرأة باهرة الذكاء و الفطنة، و ربة بيت هي تحبها و تعطف عليها، و تسرح لها شعرها الجعد الذي كان يتطلب الصبر والوقت، و كانت تدافع عنها كلما صرخ بها أخوها العابس ابراهيم. و بعد مرور عامين من وفاة شقيقتها اتفق زوج شقيقتها ابو حسين وشقيقها ابراهيم على الانتقال معا إلى بيت واحد لينعم صبيان المتفاة بدفء عائلة ابراهيم. وتجتمع العائلة في بيت أو شقة كبيرة في محلة رأس النبع من أحياء بيروت الراقية. [33]

و بعد مرور سنة حدثت حادثة عظيمة أخرى في بيتها و ماتت أختها الثانية رؤوفة، و خلفت وراءها خمسة أولاد: ابنتين و ثلاثة صبيان. "كأن مأساة شقيقتي لم تكن الضربة القاضية على أمي، فبعد مرور عام أصيبت شقيقتي المتزوجة بالمقامر بحمى وفارقت الحياة بعد أيام. و لم تكن وفاتها نتيجة لعضة جرذ بل نتيجة انفجار الزائدة الدودية حين أخذت تعالج نفسها بناء على نصيحة الجيران بوضع لبخات من قشر البصل المغلي والكمون بدلا من استشارة الطبيب." [34]

كانت كاملة بعيدة عن تلك المأساة كانت تعتني بصبيان شقيقتها و لا تحزن طويلا و كانت تستمع إلى الأغاني و الموسيقي من أكثر مذياع فتطرب لأنغامها و ترافقها في الغناء و في القلب، مندهشة من الكلمات و معانيها التي أخذت تفهمها. هي كانت تلعب على السطح عندما نادتها أمها و زوجة شقيقها، و تطلبان منها الدخول إلى غرفة نوم الصبيان حيث تقول فقط كلمتين

---

[33] الرواية صـ 49
[34] الرواية صـ 51

"أنت وكيلي" ثم تخرج و تلعب، و ما إن تدخل هي ترى رجال يعتمرون الطرابش الحمراء وكذلك رجلا ذي عمامة كالبطيخة، هي تحاول أن تقول كلمتين بأسرع ما يمكن كي تهرب من الغرفة و تلعب. و كان الشيخ القاضي يردد الجمل الكثيرة و هو مطرق إلى الأرض. و هي تفهم بمشكلة كلمات مثل بسملة و صلى الله عليه و سلم، و يتمتم الرجال من بعده: صلى الله عليه وسلم، " و فجأة يسأل الرجل ذو العمامة من عمري، فيجيبه شقيقي "عشر سنوات" يتلو كلمات كثيرة قبل أن يسألني أن أردد من بعده، "أنت وكيلي" فأردد أنت وكيلي و أسرع إلى باب الغرفة أفتحه و أغادر لأرى أمي و زوجة شقيقي تقفان كأنهما تتنصتان علي ماكان يجري في الغرفة" [35]

قد عانت كاملة من حرمان من الطفولية ثم من التعليم و بدلا من الذهاب إلى المدرسة كانت تقوم بواجبات المنزل، و تهتم بأمور الصبيان و تأخذهم إلى مدارسهم و تحمل طعام الغداء لهم ثم تأتي بهم إلى البيت بعد انتهاء المدرسة.

حيث أن أختها منيفة عندما كانت حية كانت تشتغل طوال اليوم في تربية طفلها و في شؤون البيت تكب على مكنة الخياطة طوال النهار تخيط الملابس إلى جانب تطريزها "رجل العصفورة" على المناديل الملونة و أغطية الرأس، من أجل أن يحملها زوجها في اليوم التالي ليبيعها في الأسواق. و لما توفيت و أعزم زوجها على الزواج مع اختها الصغيرة كاملة فألح عليها أن تذهب كل يوم إلى الجارية فاطمة التي كانت مرأة شفيقة، تستقبلها بابتسامة كبيرة، تتحدث بلهجة بيروتية و بصوت مرتفع و السيجارة تتدلى من فمها، ولا تنهمك في شؤون البيت. تدير المذياع بأعلى صوت، تغلي القهوة طوال اليوم تشربها، تعلم الخياطة و التطريز، و كانت معاملته مع كاملة حسنة و كاملة تشعر بعطفها حيث هي تفقد هذا العطف من قبل أهلها "فكلما

[35] الرواية صـ 54

أجيئ متأخرا في الصباح أحاول إخبارها عن سبب تأخري، كانت تهز رأسها و كلها شعور بما أعانيه، و كلها تقدير لتعبي، و تردد: عارفة، عارفة، أنت مثل حمير الحجارة." [36]

كأن الحرية و التمتع بالحياة قد تعلمت كاملة أمثالها كثيرا من الأشياء التي تنفح الروح في الحياة و هي تحب الخياطة فاطمة بسبب طرق تعايشها، و بيت فاطمة كان يحمل أهمية خاصة بالنسبة لكاملة حيث هي وجدت حبها الأول في هذا البيت، و كان محمد قريبا لفاطمة هو يزورها دائما و سوف أذكر القصة بالتفصيل.

إن ظاهرة تزويج القاصرات لا تقتصر في لبنان بل تعم في كل البلاد العربية حتى هذه الظاهرة كانت منتشرة في الهند، و لاتزال تقع في مناطق قروية. و إنه يعتبر من الظلم على البنت الصغير و هو تحريمها من حقها في التمتع بالطفولة و تحريمها من التعليم و تحريمها من الحرية و تحريمها من اختيار الزوج في الوقت المناسب.

يوم علمت كاملة بأنها متزوجة

و كاملة تم قرانها و كانت في العاشرة من عمرها و هي ما فهمت ماذا حدث في البيت من توكيل الشيخ نيابة عنها، و بعد سنتين هي أدركت بأنها هي متزوجة، و ذلك إثر واقعة مهمة تتعلق بحبها مع محمد العشيق الذي وقعت في حبه خلال زيارتها ببيت فاطمة الخياطة، و كانت كاملة و محمد تتحدثان طويلا جالسين في صحن فاطمة و ازدادت الهمسات بين الناس بأن محمد قد وقع في غرام كاملة، و ثم ينقطع محمد فجأة عن زيارة فاطمة الخياطة، لا بد أن أهله منعوه من زيارتها بينما تفكر فاطمة الخياطة أنه منهمك في دروسه ليقدم الامتحانات. و بقيت كاملة ملتاعة و تشتاق إليه إلى أن رأت محمد في الأسبوع الثالث واقفا عند البركة، فأسرعت إليه و قابلها ببرودة ظاهرة. و يمضي محمد في تجاهلها يقرأ الكتاب في الشعر، سألت كاملة أي

[36] الرواية صـ 55

كتاب هذا؟ فأجاب باقتضاب، أرجوحة القمر، و لا يجبيبها بطريقة أحسن، فهي تنصرف عنه محتارة بأمره، و إذا به يسألها بل يتهمها "أنت مخطوبة و عم تخبيئ علي.... مكتوب كتابك وعم تخبي علي؟ و تقل كاملة: يطوف في خيالي، البائع الذي أراد قبلة مني ليزيد كمية السمنة، فهل من المعقول أنه أنه خطبني من غير أن أدري؟ ووجدتي أنكر أني مخطوبة، لا لأن هذه هي الحقيقة، بل لأني اعتدت أن أنكر كل شيئ أخاف من عاقبته. و إدا بمحمد يرفع صوته:

- بلا كذب و نفاق.... مكتوب كتابك على زوج أختك المرحومة.
- أنا للبعبع؟ و حياة الله، والنبي محمد، و الإمام علي، إني مش مخطوبة لحدا، كذب ونفاق.[37]

هي تأخذ تنوح و تبكي طالبة إليه تصديقها، و تزيد البكاء لأنها ترى نفهسا بأنها في مشهد سينمائي، و يوجه البطل التهم إلى البطلة و هي ترفرف حوله باكية لأنها بريئة تحاول الدفاع عن نفسها. و إذا بمحمد يحاول تهدئتها و ينادي عم الخياطة فاطمة، فيقترب منهم و قبل أن يسأله محمد شيئا يهتف: "و الله أهلك مجرمين و على راسن الشيخ يللي كتب كتابك... واحد من الشهود خبرني القصة. ما طاوعوا قلبو يكون شاهد على كتب كتاب بنت عمرها عشر سنين."
[38]

الكاتبة تصرح بكل وضوح بأن المجرم ما كان زوج شقيقتها فقط الذي كان أكبر منا بأربعين سنة، بل كان المجتمع كله الذي لا يثبط بل يشجع هذا العمل، مرة عن طريق المشاركة في حفلة زواج القاصرات و مرة فقط اختيار الصمت في مكان كان الكلام ضد التقاليد القديمة ضروري. و الكاتبة حنان الشيخ رغم أنها هي ابنة ذلك الرجل لكنها لا تحايد لابيها و لا لجدتها بل هي تفيد بكل صدق و أمانة بأن المجرمين ماكان شخصا واحدا، و كذلك هي لا تصور بأن وما كان

---

[37]. الرواية صـ 66
[38]الرواية صـ 67

رجلا رشيدا في المجتمع كله، بل هناك عدد قليل لكن هم أغدقوا العطف و الشفقة و الحب على كاملة مثل محمد و فاطمة الخياطة، و بعده أحد من الشهود الذي رفض أن يكون شاهدا في الزواج لابنة في العاشرة من عمرها و هي لا تدرك بأنها تجبر على الزواج.

و تقول كاملة و قبل أن أدافع عن نفسي أفطن فجأة إلى كلمة "أنت وكيلي" كما أفطن إلى الشيخ ذي العمامة، و الرجال في غرفة الصبيان في بيتنا، قبل عامين. و هي أسرعت راكضة إلى البيت و تسأل أمها إذا كان ما سمعها صحيحا، فتجيبها "أن كتب الكتاب هو من أجل الحلال والحرام"، [39]حتى لا يعاقبها الله إذا ما رآها زوج شقيقتها مصادفة من غير منديل على رأسها. وتكذب أمها بأن الزواج ما كان رسميا. و هي تكر راجعة إلى بيت الخياطة فاطمة حتى تؤكد لمحمد بأنها ليست مخطوبة إلى زوج شقيقتها المرحومة، لكن فاطمة الخياطة تخبرها بأن محمد قد غادر إلى مدرسته في صيدا، و أقسم ألا يعود قط إلى بيروت.

و جاء يوم هي ترى فستان الزواج في بيتها حلت الساعة التي وقعت في حيلتها حتى تأخذ الخياطة مقاسها لفستان الزواج من أجل قريبة خديجة، لكن بعد شهر كان الفستان متكدسة على الطاولة، و ما إن رأت فستان الزواج هي تتخيل بأنها البطلة في الفيلم و ستتزوج، فيتعالى بكائها و تمد يدها أمام أمها و زوجة شقيقتها، أخذت تضرب صدرها بكل عزم، و تبكي و تضرب وجهها لأنها وقعت في المصيدة، كيف صدقت للحظة واحدة أن عائتلها تود أن تعلمها الخياطة لتصبح لها مهنة؟ و كيف صدقت أنهم لايريدون إدخالها نار جهنم حين طلبوا إليها أن تردد: أنت وكيلي، حتى الشيخ ذوالعمامة علم بذلك و مضى في الخطة و أصبح شريكا في الجريمة. تسأل أمها و تبكي لماذا فعلت هذا الأمر بي؟ تبكي أمها و تبكي زوجة شقيقها و هما تحاولان إقناعها بأن الزواج سوف يأتي بالخير بالنسبة لصبيان شقيقتها، هناك حاجة إلى عطفها على أولاد

[39] الرواية 67

شقيقتها، و الأم خائفة أن يتزوج زوج شقيقتها أي مرأة أخرى و هي تعامل مع الأولاد بالسوء وتجعل حياتهم مملوء بالمر والحنظل.

و أصبح الجميع يستغلونها بصورة عاطفية بأنها هي تمسك بقلوب الصبيان الثلاثة في قبضة يديها. و كاملة بذلت كل الجهد لإنقاذ نفسها من هذه المصيدة و طالبت من كل من رأته يتمكن من تقديم المساعدة لها و إنقاذها و إعطاها الحرية، فهي تسرع هاربة إلى شقيقها حسن الذي كان رقيق القلب و أكبر سنا من ابراهيم فهي تأمل أن الأخ الأكبر يمكن أن يمنعهم من ارتكاب هذه الجريمة و تشكو له بأن الأم و الشقيق العابس يزوجانها مع أبي الحسن و هي تقول"مش أنت الكبير و هو أصغر منك، لازم يسمع كلمتك" [40] لكنه يطبطب على كتفها قائلا طولي بالك.... وهي تهرب مسرعة إلى الخياطة فاطمة و تحكي لها كل القصة، فهي تقترح عليها أن تحاول تمديد المدة عن طريق طلب الأشياء الثمينة و المتعذر الحصول عليها، هذا يمنح الوقت لمحمد لإنهاء تعليمه لأن زوج شقيقته بخيل و لا يتحمل كلفة الطلبات المستعصية "أن اكيعهم أي أطلب الطلبات الكثيرة المستعصية شركة موفاقتي على الزواج: هيك بتكسبي وقت خاص إنو جوز شقيقتك بخيل" [41] ، حسب تعليمات فاطمة تشترط أن يأتوا لها بدجاجة محمرة شرط أن تكون من المطعم، و على خلاف ما افتكرت كاملة اشتراها لها، و شددوا الضغط عليها بالزواج من جديد و يسألونها عن سبب الرفض فهي تقول و تصيح بهم" بأني ما زلت صغيرة، و تنضم خالتي الآتية من النبطية لمراجعة الطبيب تلومني و هي تبكي بأنني أنانية لا أفكر إلا بنفسي" [42] و تعود كاملة إلى التكييع و هذه المرة تشترط أن تأخذها أمها و خالتها إلى السينما. الأم ترفض

---

[40] الرواية صـ 72
[41] الرواية صـ 72
[42] الرواية صـ 73

هذا الطلب لكن الخالة تحثها على تلبية الطلب كي توافق كاملة على الزواج، و تسألها أمها وهي تريد التأكد: يعني مضبوط بتاخذي زوج اختك أو عم تتملعني على يا جنية الحواكير" [43]

وحسب المتوقع هي ترفض الزواج من زوج شقيقتها و تسرع إلى الخياطة فاطمة و هي تشيرها بطلب أكثر من السينما و دجاجة محمرة، أطلبي ساعة ذهب و أساور ذهب و مبرومة. هذه المرة هي كانت متيقنة بأن طلباته لم تستوفى بهاو هي تنتظر رفض زوج شقيقتها لطلباتها، لكن أتى لها بكل ما طلبتها و ما إن وقع نظرها على الذهب في يد أمها حتى أغميت عليها.

في الصباح الباكر هي تهرع إلى الخياطة و محمد كان بانتظاره عند باب الحديقة و يطلب منها أن تماطل أهلها لمدة ستة أشهر، ريثما يتخرج من دورة الأمن العام و يلتحق بوظيفته. و هي تقرر أن تعدهم بالموافقة على الزواج بعد ستة أشهر و في أثنائها تكبر و تصبح في الثالثة عشرة و ستةة أشهر، و أثناء ذلك يدبر محمد الأمور للخطوبة، لكن الظروف في البيت ما كانت ملائمة كما لاحظتها و تقرر الهروب إلى جنوب لبنان حتى تستنجد بأبيها من إجل إنقاذها.

هي تسرق من جيب زوج شقيقتها بعض القروش و تتسلل في الصباح الباكر، و تأخذ البوسطة إلى النبطية، و تعزم أن تقابل أباه و فتخاطبه "بدي عيش معك ومع مرتك يا بيي، وبديش عيش ببيروت، و إذا ذكرتني زوجته بهروبي أنا و أخي كامل" [44]، وما إن تصل إلى بيت أبيها وتخبره و هي تغض بالبكاء و تقول بأن أمي و شقيقي العابس ينويان تزوويجي بزوج شقيقتي، أطلب منك التدخل السريع، و هي تطلب إليه السماح لتعيش معه، لأن والده لم يحثها على الزواج و لم يجبرها عليه و لم يعدها بالحماية و لم يستفسر و لم يطمأنها و لم يصرخ بها و لم يحاول إقناعها حتى لم يدعوها لتدخل البيت، حتى يأتي الليل و لا يسأل ابوه أو زوجته أن تدخل و تنام في البيت و لم يوفر لها الأكل، و يوشك الجوع أن يحد من قوتها لكنها لا تشل عزيمتها

[43] الرواية صـ 73
[44] الرواية صـ 80

على عدم الزواج، تتحمل و تصبر و تتذكر ما تردده أمها "والله بدي أصبر حتى يعرف الصبر أني صابرة.. أتذكر كلامها كلما شعرت بالجوع و بالوهن و أنا أسير بين الحاكورة و أنام في الخيمة و أجلس على البلاطة" [45] و هي تنهار و تأخذ بالبكاء حتى تراها جارة لأبيها و تمسك بيدها و تقودها إلى بيتها و هي تسمع القصة و لا تتوقف عن شتم أبيها و قلبه القاسي و هي تجلسها و تقدم لها صحنا من الأكل.

و قد فقدت كاملة أخير أملها عند ما لم يتقدم أبوها بالمساعدة حتى ما أدخلها في بيته و ما وفر لها الطعام لأنه كانت المعاملة قد تم توثيقها بينه و بين زوج شقيقتها، و الأب قد باع ابنتها بثمن بخس و هو يعيدها إلى بيروت بعد مكوثها لديه شهرين، فتكتشف بأنه قصد تجويعها حتى ترجع إلى بيروت في أقرب فرصة لأنه وعد بعشر ليرات ذهبية إذا تم تزويجها مع زوج شقيقتها. وهنا لم تهن عزيمة كاملة و لم تتوقف، بسبب هذه القوة التي تمتلكها و قد حاربت مع المجتمع والعائلة قد حاربت ضد كل ما جاء في طريقها و لم تالو جهدا لتصبح حرة من الزواج، و هي تضع خطة جديدة و لم تخبر أحدا بهذه الخطة حتى الخياطة الفاطمة، و هي تضيف الملح إلى قنينة زيت السمك في طعام شقيقها و زوج شقيقتها لأنها تسمع من أحد بأن الملح سم و يقتل بعد وقت قليل لكن هذه الخطة أيضا لم تفز.

بعد أيام عديدة تتدحرج على الأرض، و تبكي و تولول و تضرب نفسها و لما لم يعد بوسعها سوى المزيد من الصراخ والبكاء إذا بشقيقها العبس و أمها يدفعانها إلى الغرفة حيث كان زوج شقيقتها ينتظر. و هي حاربت ليلتين و متتاليتين حماية نفسها لكن في الليلة الثالثة تم اغتصابها و هتك عرضها و خرجت من غرفة زوجها فعلا ميتة. و هذه حكاية لآلاف من البنت ليس في لبنان أو في الخليج بل في آسيا أيضا، و في الهند يحدث ما حدث في هذه الحكاية الحقيقية. حرمانها من الحقوق الأساسية ، حرمانها من الطعام و التعليم، ثم تحميلها بالقيام بواجبات منزلية

[45] الرواية صـ 82

و ثم تزويجها بشخص أكبر منها بثماني عشرة سنة لأنها توفيت شقيقتها و عليها أن تضحي نفسها لأجل تربية صبيانها الثلاثة. في كثير من الحكايات تقضي الفتاة حياتها مثل كاملة كذلك تضحية نفسها و تضحية حريتها كأنها ولدت للتضحية فقط. لكن حكاية كاملة لم تنته بعد.

زواجها الثاني مع محمد

حكاية كاملة تعبير عن الحرمان، و الحرمان عن الحب يملأ داخل الإنسان باليأس و القنوط وكلما يتلقاه من محبة و عناية و عون مادي فهو يهرول إليه. كاملة لم يوفق لها القدر الحب من الأب، و هي عانت من المصائب العديدة بسبب عدم اعتناء بأمورها. في زمن الطفولة حتى اضطرت إلى أكلة ثم تسافر إلى بيروت مع أمها و تجبر على الزواج مع زوج شقيقتها فهي تهرب مرة أخرى إلى ذلك الأب طالبة يد مساندة. لكن الأب بدلا من أن يساعد ابنته و ينقذها من التهلكة بل باعها. أنا أقول باعها بعشر ليرات بشخص أكبر منها سنا بأربعين سنة. الطفلة كاملة لم تفز بحب أخيه ابراهيم الذي سماه العابس بسبب قسوة معاملته و خشونة سلوكه والأم كانت شريكة في تزويجها مع زوج شقيقتها.

سوف أناقش قصة حب كاملة و محمد، و محاولتهما و سعيهما لأجل تطليق كاملة من زوجها السابق و بالتالي زواجها مع عشيقها.

و اليوم السعيد يأتي في حياة كاملة حينما التقت في بيت الخياطة فاطمة التي كانت تعلمها الخياطة بالشاب الذي كان يشبه ممثلي السينما و اسمه محمد. " و أسأل كل من في البيت، لماذا لا التحق بالمدرسة الحقيقية، حتى أتعلم الكتابة والقراءة؟ لكنهم كانوا يرددون أني كبيرة والتلامذة الصغار سوف يضحكون علي. وحين أجيبهم خلليهم يضحكوا علي، تفهمني أمي إن

دوام المدرسة الحقيقية يستمر طوال النهار، و من سيأخذ الصبيان إلى المدرسة؟ و من سيحمل طعام الغداء لهما و لزوج شقيقتي، و من سيساعد في الغسيل؟"[46]

قد رأت في بيتها شابا قريبا لها، هو يسمع أغنيتها و يطرب لصوتها، و يصمم على رؤيتها فيجلس عند البركة و يتصنع القراءة منتظرا لإطلالتها. تسمعه تسأل الخياطة فاطمة بهمسة رنت في أذنيها من شدة رقتها: من أين هي الحلوة؟ فتجيبها فاطمة، من النبطية.

محمد كان شابا في السابعة عشر من عمره كان ينتمي من قرية في الجنوب قريبة من الساحل، و سافر إلى صيدون لتقلي العلوم، و تخبر فاطمة بكل اعتزاز أن عائلته "هاي لايف" يعني أصلهم أشراف و أمراء و أبوه مختار المديرية منذ ثلاثين سنة و عندهم فرسان يشغلونها بسباق الخيل. هذه الوصفات لشاب تؤثر كثيرا على بنت مفتقرة إلى أساسيات الحياة. و لم تعد تجذبها الخيطان الملونة و لا مراقبة الخياطة فاطمة، بقدر ما جذبها وجود الشاب في الحديقة و هو يقرأ كتابا. ما إن أخذا يتبادل الحديث حتى سألته إذا كان قد رأى فيلم الوردة البيضاء؟ و يسألها عمرها فتجيب 12 سنة، و تسأله عمر عمره فيقول: 17 سنة بالتمام. هكذا الحديث يستمر عن لماذا تتعلم الخياطة؟ فتجيب يللا أحسن من بلا شيء. و تفهمها بأن الوردة البيضاء فيلم سينمائي ليس له علاقة بالحقيقة غير أن الأفلام تصور حالة المجتمع، و هذا الفيلم غنائي و أعجوبة تصور كيف أن الأثرياء لا يتزوجون الفقراء و حتى أفرادا من طبقة متوسطة، و لذلك يعاني البطل عبدالوهاب من الحب و ينتهي دائما بالرفض. و هذه المحادثة قد ألقت أثرا كبيرا على كاملة و أخذت تتمتع بالجلوس معها و الكلام معها " و أخذت أتشوق لزيارة محمد خصوصا أنه يقول لي "تسلمي طبعة ذقنك" [47]، و أخذت الأنسة منه و أصبحت تشارك معه كل شيئ و هو يسدي النصيحة لها بكل هدوء فيقترح أن يكون لها شنطة يد صغير، عندما رآها وضع القروش

[46] الرواية صـ 54
[47] الرواية صـ 60

في كيس صغير تعلقه حول رقبتها فيتدلى تحت ملابسها، و ثم يتجرأ محمد بعد مرور أسابيع ويقترح عليها أن ترتدي حمالة، "و كنت لاحظت أن المارة ينظرون إلى صدري كلما أسرعت في السير" ثم يقدم لي فرشاة و معجونا للأسنان عندما رآني أفرك أسناني بالملح والماء. إن شراء هدية لأحد يحمل معاني كثيرة و هذا يدل على دنوهما مع مرور الوقت، و كذلك يبدأ محمد يغني لها أغنية سينمائية و خاصة لعبدالوهاب الذي كان له أثر خاص على كاملة حين شاهدت فيلم الوردة البيضاء مع أختها المتوفاة.

يدعوها محمد لمشاهدة فيلم الوردة البيضاء معه، لكن كاملة رفضت بأن تتأخر عن ولدي شقيقتها و شقيقها لتوصلهما إلى البيت من المدرسة و لو في الليل لكن هذا مستحيل، فيحث محمد بأن فاطمة الخياطة تكون معها، و هكذا تمكنت من قضاء بعض وقت مع محمد و شاهدت الفيلم و هي تشعر بأنها بطلة في الفيلم و تغني مع عبدالوهاب.

و تزداد همسات بين الناس و خاصة بين سكان بيت فاطمة بأن محمد قد وقع في غرام كاملة، وأهل محمد يقولون له كيف تريد تتزوج من خياطة و نحن من أمراء و شرفاء و عندنا أحصنة و أبونا مختار المديرية، ثم ينقطع محمد فجأة عن زيارة فاطمة الخياطة لا بد أن أهله منعوه من الزيارة بينما تفكر فاطمة الخياطة بأنه منهمك في الدراسة ليقدم الامتحانات. و كاملة اكتشفت هناك ماذا تعني كلمة الاشتياق و راحت تنتظر ملتاعة حتى رأته في الأسبوع الثالث واقفا عند البركة. عندما سألت عن السبب فأجاب، أنت مخطوبة و زوجة شخص و أنت خبأت مني، فهي لاتفهم إلا عندما يتدخل أحد أقرباء فاطمة و يحكي القصة بأن واحد من الشهود رفض أن يكون شاهدا على زواج بنت عمرها عشر سنين. و كما ذكرت سابقا تبدأ المشكلة هناك و هي تتذكر كلمة "أنت وكيلي" في صالة الصبيان في حضور الرجل ذي العمامة الذي كان يكرر جملة البسملة و التشهد و الصلوات.

الحين كاملة قد خضعت لنكاح زوج شقيقتها لكن لم تخضع للزواج رسميا بالنسبة للزفاف، وتشير الكاتبة إلى نكتة مهمة هي شائعة في مجتمعنا و بلادنا، لكن أنا أتعجب بأن هذا العمل يوجد في الخليج أيضا، لأن محمد لم يتجرأ أن يخطب كاملة فورا لكن كان ينتظر لانتهاء من التعليم ثم الالتحق بالوظيفة. و قابلت بعد عدة أيام بمحمد و هو يطلب منها أن تماطل لمدة ستة أشهر ريثما يتخرج من دورة الأمن العام و يلتحق وظيفته. و هي حاولت كل الجهد للخروج من مصيدة زوج شقيقتها و أهلها اتخذت طريقة التكييع ثم هربت من البيت و طلبت المساعدة من الأب لكن رجعت خائبة و في النهاية تزوجت زوج شقيقتها المرحومة، لكن الحب مع محمد لم ينقص قوته و جرأته. و تبدلت حياتها مع ابنتي شقيقتها المتوفاة و خصوصا الكبرى التي كانت تصغرها بسنوات قليلة، كأن الله أرسل لها أن يحيطها بعناية، و هي تشعر معها بالطمأنينة وبالإلفة لأنهما كانتا متشابهتين بطباعهما و بضحكاتهما.

و تشعر بالغثيان و هي تقفز على الحبل مع بنات الحي و تتهاوى على الأرض، و كانت الجارة على السطح حدست أنها حامل، فإذا بها ترفعها عن الأرض، و تأخذ بيديها و تنزل الدرجات وهي تسمعها تلعن و تشتم عائلتها "يلعن ذقن اللي جوزوك.. طفلة يا حرام" [48]

يحين وقت المخاض فيتم نقلها إلى مستشفى الجامعة الأميركية بناء على طلب زوجها و ترافها زوجة شقيقها العابس. و عندما يراها الطبيب و يسألها عن عمرها و يعرف أنها في الرابعة عشرة فيظهر استيئاه قائلا " شو الظاهر أهلك ما عندهم أكل يطعموك حتى قاموا جوزوك"[49] وولدت فاطمة ابنتها الأولى من زوج شقيقتها.

يمر عامان قبل أن تكتشف كاملة بأن محمد هو الذي أرسل لها باقة الزهور التي أتتها إلى البيت عقب ولادة طفلة فاطمة. و عندما تزوجت فأرسل لها مرسالا مع الخياطة فاطمة يقول بالحرف

[48] الرواية صـ 103
[49] الرواية صـ 106

الواحد "تزوجت؟ يا ضيعان الوفاء أنا أكبر أهبل، كيف سلمت قلبي لطفلة، أوعي تفرجيني وجهك بعد" [50]

و مصادفة هي التقت بأخت محمد، و أخبرتها بأن محمد هو الذي أرسل الباقة، و أنه ما زال يحبها حتى أنه أقسم أنه لن يقع في الحب أو يتزوج ثم أخبرتها بأنه أصبح مفتشا للأمن العام، وانتقل إلى بيروت و أنه يعيش مع بقية إخوته في بيت لا يبعد عن بيتهم سوى خمس دقائق. و بعد سماع كلها تقع كاملة في حبه من جديد. و بين يوم و آخر يرسل لها محمد وردة مع صبي الدكان الذي كان أتى بباقة الزهور. و مرة أتي ذلك الصبي بالوردة الميتة بدون عطر فسألته ما سر هذه الوردة الميتة؟ فيجيب هو مريض كثير. عندئذ تسرع إلى فاطمة الخياطة، و تسألها عن محمد و صحته و الوردة الميتة، كأن سؤالها هذا أعطاه الضوء الأخضر، و من وقتها هو يلحق بها أينما سرت. تدخل السينما مع قريبتها فتسمع زفرة كلما بث البطل لواعجه للبطلة، فالتفت حولها و رآها في المقعد الخلفي. يخبط قلبها ما إن رأته فتصبح الأماكن الدافئة دافئة و جميلة هي تفرح و تبتسم بأن هناك من يحبها و يتفهمها، و تكتفي بلغة الإشارات و خفقان القلب. حتى يوم واحد يتسلل اللص في بيتها و كان مختبئا خلف الباب، فهي تسأل أنت محمد؟ فيجيب اللص لا أنا مصطفى.

حيث كانت كاملة تلتاع للفيلم و كان للفيلم أثر كبير على شخصيته و على فهمه و معاملته و هذه المرة عندما شاهدت الفيلم "بائعة التفاح" الاجتماعي الذي يحكي عن بائعة تفاح ساذجة يراهن عليها شابان ثريان للتحول إلى فتاة أرستقراطية. و تقول كاملة" ووجدتني إثر تلك الليلة أموت شوقا أن أكون مع محمد أرى نفسي بائعة التفاح وهو الأرستقراطي الذي يقرأ و يكتب أتمنى لو

[50] الرواية صـ 125

أتحدث معه كما كنا نفعل حول البركة عن الأفلام و الممثلين فأقول له إن السينما علمتني الحياة"
[51]

و وصلت اللحظة هي تحدد موعد لقائها بمحمد على منعطف شارع، في مطعم قرب صخرة الروشة، و هو متنزه خارج بيروت تصله بسيارة لأجرة. يمسك بأيدي بعضه بعضا خائفين من أن يغيب أحدهما عن الآخر. و لم يكن الخوف يتملكها في أثناء نزهاتها و لقائاتها معه. و هي تلقاه في اليوم التالي، و في الذي يليه. معه كانت في أشد لحظات السعادة، لا تريد شيئا من الحياة، و كان محمد كالمعلم و هي كالتلميذة. و هي أخذت تلقاه كل يوم تقريبا، فور عودته من عمله في الأمن العام أي حوالي الساعة الواحدة، و في غياب كل من زوجها وشقيقها العابس، تتناول وجبة الغداء معا من طعام يشتريه من المطعم أومما تأتي به من بيتها خلسة. و ما إن تنتهي حتى تبدأ بالغناء و تتغنج و تسأله عن مقدار حبه لها. هي تزوره في غرفته الصغيرة ويقترب منها و يقبلها، و يروح محمد يقنع نفسه أن الحب العذري أشد و أقوى.

كان قد غادر بيروت بحكم وظيفته لمدة أسابيع، و في هذه الصورة كانت المراسلات هي وسائل الاجتماع بينهما، غير أن كاملة لا تعرف القراءة و الكتابة، و أرسل لها مع شقيقته هذه الرسالة التي قرأتها لها صديقتها البيروتية:

"كلما ازداد بعدنا، أصبحت حياتي كالصحراء القاحلة. قبل يومين كنا نعيش بالقرب من بعضنا بعضا، نكاد لا نفترق و الآن أنت بعيدة عني فماذا تفعلين؟ بدأت أعد الدقائق التي تفصلني عنك ما مضى منها، و ما بقي؟" [52]

---

[51] الرواية صـ 133
[52] الرواية صـ 139

ظنت أنها تعيش مع محمد كأن بيتها و بيته واحد، و تفصلهما الأبنية الأخرى و الدكاكين والسيارات والمارة. تأتي بغسيله إلى بيتها فتغسله خفية هي و ابنة شقيقتها الملاك، كاتمة أسرارها، ثم تقوم بكيه حتى تعيده إلى خزانة محمد في اليوم التالي. هي تعامل و تظن غرفة محمد الصغير كأنها خاصتها و تدخلها بدون مشقة و رهبة، حابسة نفسها أمام الجيران كي لا يفشو السر.

بعد شهور أخبرته بأنها حامل و هي خائفة من الفضيحة إذ أن هيئة المولود ستكون برهانا وتخاف أن تلد مولودا يشبهه، و تأخذها ابنة شقيقتها إلى المستشفى عنما تداهمها آلام المخاض، ويعلق الطبيب و هو يسحب طفلتها الثانية، هذه بنت عظيمة ثم يسأل ماذا تسميها، هي تجيبه، إن زوجي على سفر الحج، و هو قال لو كان صبيا سميه مصطفى و إذا بنت سميها زينب، لكن هي تقول أنا أسميها حنان كما هي سمعت اسم حنان في الفيلم.

تصلها باقة من الورد تحملها إليها الممرضة و هي تقول إنها من قريب لها يتصل بها كل يوم ويستفسر عن صحتها. و هي تخرج من المستشفى بأسرع وقت ممكن و لم تمكث في السرير مدة أربعين يوما كما هو مفروض، و هي تخرج و تلاقي محمد و يحضران معا فيلم حنان، ومرت أربع سنوات لكن لم يقف أحد يردعهما من مسارهما، حتى علم شقيق محمد الكبير و هو يحاول تفهيم محمد و تلقينه للامتناع من لقاءها بأنها متزوجة، قد انتشر هذا الخبر بين جميع أعضاء بيته و كانت الضغوط تزداد ليتزوج خصوصا بعد عرف أهله بأمر علاقته بكاملة، وكانت أخته مصدر معلومات لكاملة و تخبرها أن عائلته اختاروا له عروسا.

كانت الحياة تمر بسهولة، و كاملة كانت تتمتع بحياتها مع طفلتيها و لقاءها مع محمد كل يوم أو يوم آخر، و من خلال ذلك يقع شقيق محمد صريعا في حب ابنة شقيقتها الملاك. لكنها ترفضه ولم تحب شكله و لم تحب حديثه، و غاضبا على هذا الرفض يتجه شقيق محمد لأخذ الثأر من كاملة و ابنة شقيقتها إلى متجر زوجتها و يخبره بعلاقتها مع محمد "مضبوط اللي قال إنه الزوج

آخر من يعلم، و زوجتك كاملة ما ببتغزل من عندنا، هي و خي محمد بحبو بعض" [53] ، تدور الدنيا بها و بزوجها و يرجع إلى البيت مساءا ثم يأخذها على حدة و يسألها مستطلعا الخبر، فهي تصيح لا.. كذب و نفاق، فيقول ناولني المصحف الكريم، هو يأتي بالمصحف و هي تقسم بصوت عال بأنه لا علاقة لها بمحمد.

هي تقصد مكتب محمد اليوم التالي و ما إن يراها حتى يتأكد مما حصل، و يطمأنها للحظة ثم يميتها في لحظة تالية، و هو يسألها إذا كنت تريدين الطلاق من زوجك الزواج به حتى يتدبر الأمور، و هي تجيبه "يعني بدك بأني إرمي حالي تحت هالسيارة؟ و هو يواسيها بأنه يرسل أخاه الكبير إلى زوجها ليؤكد له أن ما سمعه غير صحيح. و فعلا هو يسرع إلى متجر زوجها ويكذب أخاه الصغير الطائش، متذرعا بأن رفض ابنة شقيقتها له قد خربط عقله.

تم اختيار اسم محمد من بين المسؤولين الذين يذهبون إلى البقاع لإتلاف الحشيش، بهذا ينمو الشعور بالفراق فيهما و يبكي محمد و أخذ يشرح لها بأنه عليها أن تطلق زوجها و تتزوجه. ويقول لها أن القبل حقنة مسكنة للألم لكنها مؤقتة سرعان ما يتلاشى مفعولها. فهي تجيب إذا لم تجد الهروب من موضوع طلاقها، بأنها ستتزوج آجلا أو عاجلا، فزوجها سوف يموت لأنه أكبر سنا.

و محمد قرر تركها و هي أعزمت على مساعدته لتركها، و كان محمد قد انقطع لمدة أشهر منها، أن رآها مصادفة و نظر إليها بالنظرة المنادية للعودة. فعرفت أنه يريد العودة وفعلا عاد إنما بالطريقة التي أرادها. ذهب إلى شقيقها عاشق العود طالبا إليه مساعدته من أجل تطليقها، وعندما علم عنه شقيقها العابس قد أغمي عليه. و أخذت الأحداث و الأمور بسرعة. و حضرت كاملة مع عائتلها و زوجها في المحكمة الشرعية "أطلب السماح من زوجي و نحن جالسان أمام

---

[53] الرواية صـ 176

الشيخ في المحكمة الشرعية، سامحني يجيبني و هو يبكي: المسامح هو الله. يطلب السماح مني بدوره: سامحيني، فأجبته و أنا أبكي: سامحتك. هل من المعقول أني أجلس أمام رجل الدين و هو يوقع وثيقة طلاقنا؟" [54]

ثم يظهر والدها فجأة ويصطحبها معه إلى الجنوب. يأتي محمدبعد أسبوعين في بدلته الأنيقية وهي تترجل مع محمد من السيارة التي أقلتهما من الجنوب إلى بيروت. و هي تدخل غرفة الهودج التي كانت تتسلل إليها كاللص.

الزواج الأول لكاملة كانت مجبرة و هي كانت في العاشرة من عمرها و أنجب أول طفلة هي كانت في الثالثة عشر. حتى قبل الزواج هي تهتم بكل أمور البيت، تساعد شقيقتها و أبنائها في توصيل إلى المدرسة و استلامهم بعد دوام المدرسة. كأن حياتها تعبير عن المحنة والمشكلة، لكن شخصا واحدا غير تيار حياتها و هي تستمد روح الحياة و نشاطها من السينما و محمد يكون بطلا هي تعتبر نفسها بطلة و هي تتحدى المجتمع و الرجال أمها و كل من يأتي في سبيلها و بعد مدة غير قصيرة تفوز بتطليق زوجها و تتزوج عشيقها. غير أن حياتها كانت سعيدة إلى أن مات زوجها الثاني محمد إثر حادثة سيارة و تبدأ المحنة الأخرى.

زواج الكاتبة حنان الشيخ

قصة الحب للكاتبة حنان الشيخ مع كاتب كبير تبدأ حينما كانت طالبة في مصر و كان الشخص لم تظهر اسمه كان متزوجا، و هي ترجع من القاهرة و تشتغل في بيروت كصحفية و تقضي حياة مستقلة و كان عمرها ثلاثة وعشرون عاما فهي تتزوج مع شخص مسيحي في عام 1970، هي تتزوج سريا و لا تخبر ابا و لا أما، إذا علم أبوها صار يغضب و يبكي و يظهر استيئاه لكن الأم إذا علمت بزواج ابنتها حنان تفرح كثيرا و ترقص بأن ابنتها قد تزوجت

[54] الرواية 225

ووجدت قرينها الذي اختارته بنفسها. كاملة أشارت بهذا التصرف إلى احترام حق اختيار ابنتها لزوجها.

حنان الشيخ غادرت بيروت سنة 1976 لتسكن مع زوجها الذي يعمل كرجل أعمال في السعودية، ثم سافرت في عام 1982 إلى لندن و هي ساكنة هناك.

الطلاق

سأناقش الطلاق و أسبابه و نتائجه و التداعيات التي تؤثر العائلة كلها في ضوء رواية حكايتي شرح يطول.

الطلاق.. كلمة من أصعب الكلمات التي يعاني منها أي مجتمع.. وكلمة "مؤلمة" لأنها تمثل نهاية علاقة بين شخصين وهي بداية تحول كبير في حياة أشخاص يمثلون ناتج علاقة هذين الشخصين.. وهذا التحول قد يكون فيه تحولات سلبية على مستقبل بقية الأطراف

ظاهرة الطلاق أصبحت اليوم في مجتمعنا في حاجة إلى تدخل رسمي لحل هذه المشكلة وإنقاذ المجتمع من سلبيات كبيرة اجتماعية تتراكم عاما بعد عام بسبب ظاهرة الطلاق .. والظاهرة تحتاج إلى ما يلي:

عندما تتحول العلاقات في الحياة الزوجية الى عبث رخيص عند الزوج ، وعندما تكون نفسية الزوجة مهددة بالانكسارات والإحباطات والهزائم والخوف عند كل تصرف أو قول يصدر عنها بسبب السيف المشهر أمامها ، وأمام مستقبلاتها ، وعندما يأخذ الرجل من بعض حقوقه الدينية سلاحا لاضعاف المرأة والتعامل معها لا كشريك ولكن كهامش اجتماعي ، أو مقتنى من مقتنيات المنزل . فيشهر مفردة « الطلاق « والتهديد به . فإن ذلك يعتبر منقصة في الرجولة ،

واهانة لمعاني الزواج وارتباطاته ، وأمانة أن يكون الرجل مسؤولا عن كائن أنثوي يستحق الحب والاحترام والتقدير والتضحيات.

في بعض مجتمعنا الذكوري ، وعند بعض الأزواج الحمقى يكون التهديد بالطلاق ممارسة يومية عند كل صغيرة ، وفي لحظة أي انفعال حتى ولو كان غير مبرر ، وأكثر الانفعالات عند الحمقى غير مبررة .ليكون وسيلة ضغط لفرض أوامره قسرياً على زوجته ليمنعها من فعل شيء لا يرغبه ، أو يفرض عليها أمراً لا ترغبه هي ، والغريب أن التهديد بالطلاق يكون في أغلب الأحيان لهفوات ومشاكل بسيطة لا تستدعي نطق تلك الكلمة وترديدها بين الحين والآخر لما لها من آثار نفسية مؤلمة عند الزوجة، و قد عانت من ذلك الألم، ألم الطلاق

أم كاملة يعني جدة الكاتبة قد هجرها زوجها بعد أن وقع في حب مع امرأة أخرى و لم يعتن بها و لا ابنه كامل و ابنتها كاملة و تركهم بدون عون و مؤونة:

"منذ أن وعيت أراني ألحق بأبي مع أخي كامل، تلحق بنا دعوات أمي من أجل أن يقتص منه الله، فهو تركنا عندما وقع في غرام امرأة أخرى، فطلق أمي و تزوج تلك المرأة." [55]قد صورت الكاتبة وضع عائلة مسلمة محتفظة في لبنان لكن بعد الدراسة يشعر لنا بأن تلك الحالة السيئة والمؤلمة مسيطرة على المجتمع الهندي المسلم أيضا، في المجتمع الذكوري، الرجال يستخدمون الطلاق كسلاح لتهديد المرأة و إثبات رجولته عليها و هذه الظاهرة ليست محدودة النشر في أية طبقة خاصة بل تعم جميع الطبقات الدينية و الإقليمية في مجتمعنا أيضا. و ألم الطلاق لاتذوقه المرأة دفعة بل بعد أعقاب تحريش جسدي و عنف ذهني من قبل الرجل و عائلته، و ثم يعاقبه أشد الألم وهو ألم الجوع، و الرجل يترك الزوجة بعد الطلاق مع الأطفال، و في هذه الرواية قد

[55] الرواية صـ 8

كشفت الكاتبة كيف الأم مع طفليها قد أجبرت للجوء إلى المحكمة طالبة حقوق المؤونة لالحقها بل لأبناءها الذين ليسوا لها فقط بل للرجل سويا

"رفعت أمي شكواها إلى المحكمة في النبطية ليدفع لها "الكلف" من غير جدوى. نبحث عنه ليشتري لنا الطعام، نعدو فوق الحجارة، نقصد بيته في القرية المجاورة، نلحق به إلى سوق النبطية، نسأل عنه، نستدل أخيرا على مكانه من صورته و قهقهته العالية، و نطلب إليه أن يشتري لنا السكر و اللحمة، تماما كما أوصتنا أمنا. يوافق على الفور، و هو يمازحنا تارة، وينهرنا تارة أخرى، طالبا إلينا اللحاق به، فنسرع خلفه، بين أكوام أكياس البرغل والعدس، بين الجمال والحمير و الخرفان و الدجاج و الدلالين و المنادين على بضائعهم. يزوع منا، ثم يظهر لنا ليختفي من جديد. ينادي أخي كامل اسم والدي على مدى صوته، فيعلق رجل كان يبيع جلود الخرفان: "صوتك يا ولدي مثل الضرطة في سوق النحاسين و الدقاقين".

الهجر و الحرمان و ثم عدم توفير المؤونة و حوائج يومية للزوجة المطلقة أو المهجورة والأبناء هو موضوع النقاش كان في الماضي و حاليا أيضا و بسبب عدم الالتفات إلى هذا الموضوع قد نرى الاضطهاد و الألم بصورة عامة تواجهها المرأة و الأطفال، و قد صورت الكاتبة صورة صادقة للمجتمع اللبناني حيث هذه الظاهرة تعم الشرق الأوسط و الآسيا بصورة عامة و الهند بما فيه. و تذكر كاملة كيف رفض والدها توفيرها حتى الحوائج الأساسية لقضاء الحياة و الأم قد راجعت إلى المحكمة و أرباب الدين لكن قد أصبحت المحاولة للحصول على الخبز و السكر و اللحم غير جدوى، و الأب هو كان يهتم بزوجته الثانية و الأطفال منها لكنه هجر كاملة و كامل و أمهما بدون يد معاونة و ليس لديهم شيئ ما يكفي لهم لشبعهم حتى ليوم واحد و تقول كاملة في الرواية"نعود إلى أمنا التي كانت تنتظرنا عند أخيها الإسكافي الذي كان

ينتحي زاوية في السوق، و عندما لا ترى إلا أيادينا الفارغة يتجهم وجهها و تقسم بأنها تشكوه من جديد. نعود إلى البيت من غير اللحمة أو الأرز أو السكر." [56]

وتستمر قائلة بأن المشلكة لم ينته هنا، بل قليل من النسبة المئوية من النساء تلجأ إلى المحكمة لأجل الحصول على حقها و حق الأطفال و في سبيل ذلك تعاني من أسوأ المصاعب و المشاكل "تأخدنا أمي في اليوم التالي إلى المحكمة، تقول لرجل يضع على رأسه عمامة مثل البطيخة: {زوجي مش عم يدفع الكلف، من وين بدي طعمي هالولدين. بقطع شقفة من إيدي كيف بدي أكسي هالولدين، بسلخ جلدي؟" [57]

اختطاف الأطفال (كامل و كاملة)من الأم(أم كاملة و جدة الكاتبة) حرمانهم من الحب الأموي

والقضية هي أكثر مؤلما و مقهرا بالنسبة للمرأة و الأم المطلقة أو المهجورة خاصة، و هي إذا يخطف الرجل الأطفال من أمهم و يستبعدونهم منها و ذلك فقط لأجل الانتقام منها تركها في عالم المحن و الظلم، تنقلب على فراشها لا يأتي النوم و السكون إليها، و هذه القضية قد كشفت عنها الكاتبة بصورة واضحة، و كيف يستغل الأب فرصة الجوع و الحرمان و يغري الأطفال ويخدعهم بوعود كاذبة عن شراء الأشياء لهم أمثال الملابس و اللحوم و الأحذية، و يبعدهم من أمها حتى الأطفال بسب الإفراط من الفرح و السرور للحصول على أشياء الأكل لا يتفكرون بالاستئذان من أمهم و يهرولون خلف أبيهم.

"جاء أبي يطلب إلينا مرافقته إلى السوق ليشتري لنا الملابس و اللحمة و السكر و الدبس والحلوى. حماستنا أنستنا أن نزف الخبر إلى أمنا، فنهرع إلى أبي حفاة، نعدو خلفه وهو يزيد من وعوده: "وكمان بدي اشتريلكم صبابيط جديدة عم تلمع مثل المراية". يسلك بنا طريقا بين

---

[56] الرواية صـ 8
[57] الرواية صـ 9

الحجارة و الأشواك و بعض الأشجار، ونعرف أنها لم تكن الطريق إلى السوق، بل حيث يعيش هو زوجته الجديدة. يبادرها ما إن وصلنا: "بدها تكون أشطر مني؟ يللا خلليهم يعيشوا معنا بلا كلف و بلا وجع رأس". [58]

و الطفل كامل و الطفلة كامله كانت الليلة طويلة لهما يتقلبان على الفراش و يفكران بأمهما بأن الأم قد أيقنت بأن الضبع قد أكلهما أو أن الارض انشقت و بلعت، و قد طلع الصبح " و يصبح اشتياقنا لأمنا عظيما لدرجة أننا لم نستطع أن نبلع طعام فطورنا، رغم الدبس و السكر، إلا حين رشفنا الشأي بعد كل لقمة". [59]

ونهائيا كامل و كاملة يقرران الهرب قبل أن تغرب الشمس و يسرعان كما جاءا حافيي الأقدام فوق الحجارة البنية و الحمراء، فوق الغرسات القليلة، غير مبالين بالأشواك، و كانت الأشواك أخذت تطير، و تتسلل إلى داخل فستانيهما لكن الشوق إلى الأم يزيد حماستهما. "نتساءل هل يرانا في العتمة؟ و لا نتفس الصعداء، إلا عندما يلوح بيتنا من بعيد، و نعرف أننا وصلنا. وقبل أن تكتمل فرحتنا رأينا قامة تروح و تجيئ، لا بد أن علي الأطرش المجنون. لكنها كانت أمي تنتظرنا من غير أن تعرف بأمر هروبنا ترانا و تصيح باكية. نراها و نهلل. ينادي أخي "جينا وجبنا المجدرة معنا. بدي طعميك مجدرة يا أمي.[60]

تمضي أشهر لكن الوالد لم يعتن بالزوجة و الطفلين و الأم هي لا تزال تحاول و تعتزم مواجهته وجها لوجه ليدفع الكلف. و الأم مع الطفلين تبحث عن الوالد في كل مكان، لكنه يهرب ما إن رآهم من بعيد، و ما استحيت حنان من ذكر أحوال البؤس واليأس لأمها و لجدتها و تقول بأن الأم يعني أم كاملة و جدة الكاتبة تخرج إلى الحقل و تقطف البرتقال و الليمون الحامض في

---

[58] الرواية صـ 10
[59] نفس المرجع صـ 11
[60] الرواية صـ 13

مزارع كبيرة، و هي كانت تصطحب كاملة معها و تترك كامل لدى جيرانها. يسيرون بين الحقول و يقطعون الطرق العمومية، و يهبطون في الأودية. و كم من مرة تتوقف كاملة تريد أن تفترش الأرض من شدة التعب و آلام قدميها، لكنها تمضي لاحقة بأمها، و ما إن تصل إلى المزرعة حتى تجد أمها مكانا لها تحت شجرة، و هي تغني و تأكل البرتقال.

القضية هي أكثر موضوعا للنقاش و أكثر مبغوضا في المجتمع اللبناني و كذلك في مجتمعنا أيضا **وهي الزواج الثاني للمرأة،** و كذلك الزواج الثاني للرجل، حيث يعتبر الزوج الثاني للمرأة من أبغض الأعمال ترتكبها المرأة و هي بمثابة ذنوب و هي تكون منبوذة لا يستحسن استمرار العلاقة الودية أو العلاقة الشخصية معها حتى الأقرباء من الأم أو الأب تحرمها من الحب والدعاء حتى هي تشعر بأنها قد ارتكتب جريمة و هذا هو السبب الذي قد ساهم في زيادة انتشار الزنا في مجتمعنا، لو يكون الزواج الثاني بعد فشل الزواج الأول بأي سبب كان أسهل سيكون الزنا أصعب و ثم أعدم، لكن أرباب حرمة المجتمع لم يعتنوا بها و فقط لاستمرار بطشه وسيطرته على المرأة سواء كان أرباب الحل و العقد من الطبقة الدينية أو المدنية لهم شراكة سوية في جعل المرأة جارية لهم و دفع المجتمع إلى التخلف و التدهور، قد تعلمنا من هذه الرواية السيرة الذاتية بأن أم كاملة كانت في أسوأ وضع في حياتها حين فقدت زوجها على أيدي عصابة اللصوص و بسبب عدم توافر وسائل الدخل قد طلبت من أرباب السياسة المساعدة، وبفضل تدخلهم قد تم قبول أولادها الأربعة في مدرسة خيرية أميركية في القسم الداخلي في صيدا.

لكن حصل تغير في حياة أم كاملة، إلى أن جاء شيخ دين تخرج من جامعة الأزهر في مصر، وعاد إلى الجنوب مسقط رأسه و في نيته افتتاح مدرسة للأولاد حيث يعلمهم أصول القراءة والكتابة و القرآن الكريم. و كان للشيخ ابن واحد تولى مهمة التعليم و إدارة شؤون المدرسة. أخذ يغازل أمي الأرملة ذات القمامة الطويلة... مالت أمي إليه إذ لم يكن كأي رجل في عائلتها أو في

القرية. كان متعلما، صاحب نكتة، ينظم الشعر الارتجالي، و يحفظ الشعر الجاهلي. أيقنت أنه سيتحمل معها مسؤولية معها مسؤولية أولادها الأربعة، لذلك تزوجته رغم أنها كانت تكبره بعشر سنوات، و أطلق عليها الشاب لقب خديجة بنت خويلد، متمنيا لو أن أمي ثرية تفهم في التجارة، كخديجة أولى زوجات النبي محمد ص. [61]

و أم كاملة هي افتكرت أن تسترد أولادها الأربعة من المدرسة الخيرية أن يسكنوا معها لكنهم لم يحبوا زوج أمهم و سافر أكبر منهم إلى بيروت و بعد عدة شهور لحقه أصغرهم ثم الأختان أيضا، و بقيت الأم و زوجها و كامل و بعد ثلاث سنوات ولدت كاملة. و كما ذكرنا من قبل أن الزوج الثاني لأم كاملة استجلب شيئا من الراحة و السكون في الحياة بالنسبة للوسائل المادية لكن لم تمض عدة سنوات أن يتزوج زوجها امرأة أخرى بعد أن وقع في غرامها، و المشلكة بدأت هناك، و ذلك بسب عدم الاتباع بسنة النبي صلى الله عليه و سلم، لأن الزواج الثاني مسموح للرجل والمرأة لكن منوط بعدة شروط، و الراوية قد أشارت إلى تلك النكتة هناك، بأن زواج الزوج الثاني مع المرأة الأخرى هذا مسموح لكن هو لم يعتن بزوجته السابقة و الطفلين معها هذا ليس بمسموح و هذه الظاهرة توجد بشكل ملحوظ في المجتمع الهندي أيضا كأن هذه السيرة الذاتية في صورة الرواية تصوير صادق لسوء الاستخدام بأيدي المجتمع الذكوري بسماح الزواج الثاني من قبل الإسلام. كما يجب أن يعتبر الزواج الثاني للمرأة المطلقة أو الأرملة بعد استيفاء بالشروط التي صرحها الإسلام حسنا و كذلك يجب أن يتجنب الرجل من الزواج مرة ثانية لو هو غير قادر على تحمل المسؤولية لزوجته السابقة و أطفاله.

طلاق كاملة من زوجها الأول

[61] الرواية صـ 27

في هذه القضية تشير الكاتبة إلى أن الطلاق سلاح للرجل، هو يستخدمه لتهديد المرأة و يجبرها أن تكون مطيعة و منقادة له لكن كاملة غير أنها حاولت كل المحاولة في البداية أن تتجنب من الزواج الأول مع شخص يكبره بأربعين سنة لكن قسريا قد أصبحت صيدا له و أنجبت ابنتين لكن بالنهاية محمد عشيقه استخدم هذا السلاح لتطليقها من زوجها الأول. و كاملة مع أنها غير راضية بزواجها لكنها لم تفتكر بالطلاق نظرا إلى الاعتناء بشؤون فاطمة و حنان. هذا يدل على أن المرأة هي تفتقر إلى الطلاق و تلجأ إليه إذا كان لا يبقى عندها إلا هذا الخيار و كل مرة هي تطالب لتقديم التضحية. و هذا من حوادث نادرة تسمي خبر الطلاق بالخبر السعيد و محمد لما يصر عليها أن تتزوج معه و تطلق زوجها "علي أن أطلق زوجي و أتزوجه. لم يعد أسمع شيئا. أسد أدني و قلب. أميل أقبله فيبعدني عنه ويقول لي إن القبل حقنة مسكنة للألم، لكنهامؤقتة، سرعان ما يتلاشى مفعولها. عندما لم أعد أقوى على الهرب من موضوع طلاقي، أجدني أزف إليه الخبر السعيد بأننا سنتزوج آجلا أم عاجلا، فزوجي لا بد أن يموت، يسألني و كأنه يكتشف سرا، لماذا لم أقل له من قبل أن زوجي يعاني مرضا عضالا؟ أخبره بأنه سوف يموت لأنه أكبر مني و منه سنا." [62]

و أبغض الحلال الطلاق هذا حديث نبوي يحمل كثيرا من المنافع الظاهرة والباطنة، لأن المعاناة عقب الطلاق ليست فقط للمرأة بل العائلة كلها تعانيه و العائلة سواء كانت للرجل أو المرأة. وفي الرواية تصرح الكاتبة بأن في المحكمة الشرعية عند التوقيع على الوثيقة كان الحاج زوج كاملة يبكي. و كاملة تركت بيت زوجها الأول لكن بقي في البيت كثير من الذكريات و الحقائق أهمها كانت ابنتان لها فاطمة و حنان، و كاملة لم تطلب من زوجها حق استبقاءهما معها. و بقيتا مع أبيهما.

[62] الرواية صـ 200

الفصل الثاني

قضية التمرد و حرية المرأة

إن الكاتبة حنان الشيخ قد أصبحت هدفا للنقد اللاذع من كثير من أفراد المجتمع الذكوري بسبب صراحتها و تصوير المجتمع الصادق، و هي تعلمت الجرأة للتعبير و صفة التمرد على المجتمع من أمها و أصبحت مثالية لحرية المرأة لآلاف امرأة عربية، و حكايتي شرح يطول تتناول كثيرا من القضايا النسائية من أبرزها الطلاق و الزواج و الحب و انتحار المرأة و التعليم للبنات لكن محور المناقشة و الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب هو التمرد و حرية المرأة و التمتع بالحياة الحرة.

تبدأ الرواية"يقول لي أبي في أحدى زيارته لي في بيروت و هو يضع الطربوش على رأسه حتى يبدوا أكثر طولا إذ كان بالغا في قصره: "سميتك كاملة، لأنك خلقت كاملة الملامح والتكاوين و سميت أخاك كامل، مع أن الكامل هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بس يللا معليش أنا كريم" [63]، لكن كاملة توجه السؤال إلى أبيه وهو مونولج داخلي تحكي فيه كاملة طبيعة علاقة أبيها بالعائلة و تقول: "إنت كريم؟ مشان هيك كنت بدك تضيعني أنا وأخي في سوق النبطية حتى ما تشتريلنا لحمة؟ تركتنا حتى صرنا هفيانين السكر واللحمة وانجبرنا نروح عابيروت، وعمرها ما كانت روحة.. لو ما بيروت ماكنش الجردون علقني هيديك العلقة بتقول عن حالك كريم منشان هيك منعت عني الأكل وجوعتني وبعتني بعشر ليرات ذهب، وعمري 13 سنة؟ يا ويلك من الله". [64]

---

[63] الرواية صـ 5
[64] الرواية صـ 7

كاملة تظهر في طفولتها بأنها لم تلد للاستسلام و الانقياد بل سوف تكسر تلك القيود التي تريد الحد من حريتها و تحدد فسحة حياتها، و أول محنة واجهتها في الحياة بالأسف الشديد كانت من أبيها، حينما اختطفها من أمها كي يفصلها مع أخيها كامل من أمهما لتحريمهما من دفئة الأمومة، و ابتلاء صبر الأم. الأب لم يوفر الكلف و بينما كانت أمها في الحاكورة تقطف ما زرعته من فول جاء أبوها يطلب مرافقته ليشتري لهما الملابس و اللحمة و السكر و الدبس و الحلوى، وحماسة الطفولة أنستها من إخبار أمهما، و يهرعان خلف حفاة وهو يزيد من وعوده: "و كمان بدي اشتريلكم صبابيط جديدة عم تلمع مثل المراية" [65] و كان الطريق ما كان إلى السوق بل حيث يعيش و زوجته الجديدة. و تهمس بنفسه هي تريد أن تكون أشطر مني؟ خلليهم يعيشوا معنا بلا كلف و بلا وجع رأس. كانت الليلة طويلة يتقلبان معا و يصبح اشتياقهما للأم عظيما بدرجة أنهما لم يستطعا أن يبلعا طعام الفطور، و هي بالرغم من أنها كانت صغير لكن لم تكن خائفة و جالسة بدون تفكير، و يجعلان الخطة و يقرران الهرب قبل أن تغرب الشمس، يسرعان حفاة فوق الحجارة البنية و فوق الغرسات القليلة، غير مبالين بالأشواك والحشرات و الحيات. وكانت الأم تنتظر و من غير أن تعرف بأمر هروبهما تراهما و تصبح باكية. و علما بأنهما لم يهربا بدون المجدرة نوع من الأكلات في لبنان سرقاها من بيت أبيهما كي يقدماها لأمهما يمكن أن تكون جائعة.

وبعد هذه الحادثة قررت الأم السفر إلى بيروت لتسكن عند ابنيها و ابنتيها من الزوج الأول، وعندما تصل كاملة في بيروت و تأتي في ذهنه صورة خيالية لبيروت تختلف من النبطية، وهناك تجد مسرحا مختلفا للحياة.

هي تراقب البنات اللواتي كن مثل سنها و هي تتحرق إلى اللعب معهن، خاصة مع فتاة تتأملها بازدراء، و هي تفكر ربما لأني أنتعل قبقابا خشبيا. لكن كيف أخفي فستاني الذي كان مختلفا من

[65] الرواية صـ 10

فساتين بنات لبنان؟ هي تحاول أن تستدر شفقة الفتاة و تكسر جدار الصمت و تتواصل مع الأجنبيات فتتبادر و تقول "أنا مش من بيروت، و أبوي ميت، ما حدا بيعطيني قروش". وفتاة تدبر ظهرها و تقول أهلك فقراء، فهي تصمم أن تأتي بالقروش بأي طريقة ممكنة. وتعود تستجد أمها و شقيقتها بلا فائدة. كان كل من في البيت يعمل: و كاملة حسب إرشادات شقيقها العابس وزوج شقيقتها تسير الأحياء المجاورة و تبيع خمس قبات كل يوم.

إن غياب الأب بعد أن هجرها مع أخيها و أمها، و أصبحا سببا للفقر و الجوع ثم الاضطرار للرحيل إلى بيروت و الحرمان المادي والمعنوي لم يمنع "كاملة" من أن تتوق للحب و الحرية والفرح، و هي عاجزة عن الحصول على هذا التوق سوى عبر التحايل على الواقع المحيط بها وتوسلت إلى شقيقتها كل لحظة و في كل يوم و في كل أسبوع أن تأخذها إلى فيلم "الرودة البيضاء" حتى رضيت أخيرا مشترطة عليها أن لا تخبر أحدا و لا حتى أمها. و تخرج من الفيلم و تسرع بها شقيقتها للخروج و الوصول إلى البيت لكن هي تريد أن تبقى على المقعد. كأن الفيلم قد نفح روحا جديدة فيها و حيوية في روحها، جالسة و راجلة هي تسترجع فيلم الوردة البيضاء في خيالها و تضع نفسها موضع الممثلة في الفيلم و تغني: يا وردة الحب الصافي... تسلم إيدين اللي سقاك.

يصطحب كاملة زوج شقيقتها إلى بيت الخياطة فاطمة كي تتعلم الخياطة و لم يرسلوها إلى المدرسة كي تتعلم القراءة والكتابة، لكن لم تيأس من الحياة و لم تضيع وقتها آسفة على ما يحدث معها بل بدأت تتمتع بذاتها و بكل ما يحدث معها، من سعادة حظها كان الخياطة مرأة عطوفة وشفيقة تتعامل معها برفق و حب، و كاملة بدأت تقضي أوقاتها في بيتها "تزداد حماستي للذهاب إليها كل صباح يوما بعد آخر، مع إزدياد حبي للتطريز و الخيطان الملونة. أجلس والإبرة في يدي، وحديدة بعيدة عن بيتنا، و عن الصخب والطلبات التي تسألني أن أفعل هذا، أو لا أفعل ذاك. أصدح بالغناء كما يفعل الحصادون والفلاحون في النبطية، لا كما أغني في حمام بيتنا

بصوت مخفض خوفا من أن يسمعني شقيقي العابس، أو زوج شقيقتي فيكتشف أني ذهبت إلى السينما." [66]

تحيا «كاملة» في واقع من الحرمان المادي والمعنوي، حرمان يجعلها تعيش في أمنيات مستمرة لنيل الأشياء التي ترغب بها، وهي أشياء أنثوية يرفض زوجها وأخوها أن تحصل عليها، لذا تستمر في التحايل للوصول إلى رغباتها . لكن «كاملة» تواجه قمعًا «ذكوريًّا» من زوجها وأخيها يتمثل في ضربها وإهانتها واتهامها بالسرقة من زوجها، إلى الحد الذي يدفعها للتفكير في الانتحار في لحظات اليأس..يغيب أيضًا عن حياة «كاملة» وجود مرجعية نسائية تلجأ إليها في وقت المحن، أو تأخذ منها النصيحة، إن كل النساء اللواتي يحطن بكاملة يمثلن أيضًا السلطة، هناك الأم وزوجة الأخ لذا تكون المرجعية الأولى بالنسبة لكاملة إحساسها الفطري بالأشياء ومدى رغبتها فيها أو نفورها، لذا تندفع غالبًا بجموح خلف ما تود الحصول عليه، لأنها تعيش هوية جسدية مفتقدة واقعيًّا، وتحاول التعويض عن هذا الفقد في التفتيش عن ذاتها في المشتريات الجميلة، في السينما، واللقاءات النسائية، ويحدث تواطؤ من قبل المجتمع المحيط بها؛ لأنها صغيرة في السن، وحديثة عهد بالزواج. "تضحك الجارات وتتناقل الألسن أخبار سرقاتي، يتواطأ معي الجميع لصغر سني، رغم احترامهم لنزاهة زوجي وتدينه" [67]

كاملة يتم تزويجها، وهي طفلة في الثالثة عشرة من عمرها بعد أن يعقد قرانها وهي في العاشرة على زوج أختها، بعد أن تموت الأخت جراء تسممها من عضة الجرذ. "كنت ألعب على السطح عندما نادتني أمي وزوجة شقيقي العابس لتطلبا إليّ الدخول إلى غرفة نوم الصبيان حيث أقول كلمتين «أنت وكيلي» ثم أخرج وأكمل لعبي. أردد "أنت وكيلي" وأسرع إلى باب الغرفة أفتحه وأغادر لأرى أمي وزوجة شقيقي تقفان وكأنهما تتنصتان على ما

---

[66] الرواية، صـ 56

[67] مجلة نزوى، كلمة رئيس التحرير، 1 اكتوبر 2013

كان يجري في الغرفة، وإذا بي أخاف أن تبدلا رأيهما. وتمنعاني من اللعب على السطح، لذلك بادرتهما قائلة: «خلص قلت، أنت وكيلي شو بعد بدكن؟» أركض إلى السطح وكلي عجب لأن الكبار يضيعون الوقت، وينصتون إلي أردد بعد رجل العمامة «أنت وكيلي» بدلاً من أن يطلبوا إليّ مسح الأرض أو جلي الصحون" [68]

يطلع هذا المقطع المعاناة التي ستبدأ في حياة «كاملة»، إرادتها التي تم سلبها منذ الطفولة، تلك الإرادة التي يتم استخدامها و توجيهها لصالح غايات أخرى تتناسب مع الخيارات الأسرية لباقي الأفراد، لكنها لا تتلاءم مطلقا مع كيان طفلة في العاشرة من عمرها، تم انتزاع طفولتها منها منذ غياب الأب، مما تسبب في مواجهة الجوع والفقر، وحاجة الأم للانتقال إلى بيروت والحياة مع ابنتها وزوجها، لكي يساعداها في نفقات الولدين، لكن كل هدا يأتي بكثير من التضحيات، وتكريس الانتزاع التام للطفولة يكون مع مصادرة حقها في اختيار «الزوج» وقيام العائلة بعقد قران طفلة- تلعب في الشارع – على رجل يتجاوز ضعفي عمرها .إن القمع الأسري الذي مُورس على حياة «كاملة»لم يكن كله ذكوريًّا، بل إن النساء شاركن في صنعه أيضًا هناك الأم وزوجة الأخ اللتان تتواطآن لتنفيذ خطة متفق عليها في تزويج «كاملة» لزوج أختها كي تقوم كاملة على رعاية أطفال الأخت المتوفاة .

يتشكل في بيروت، حب «كاملة» للسينما، للفساتين الجميلة، للأغنيات، للأفلام، لكسر كل القيود الاجتماعية التي تحيط بها وتمنعها من اكتشاف العالم، لكن «كاملة» محاطة بواقع مختلف، واقع يتشكل من الفقر والمعاناة والجهل. ولعل سيرة حياة كاملة في انتقالها من الجنوب إلى بيروت، ومن المجتمع القروي الفقير والمعدم إلى مجتمع مدينة بيروت، المنفتح والحضاري، يعبر عن

[68] الرواية، صـ 54

شريحة اجتماعية عريضة انتقلت من الجنوب إلى بيروت في سنوات الثلاثينات بسبب الفقر، ثم بسبب الحروب التي ستؤدي إلى الرحيل القصري.[69]

تطلع «كاملة» إلى تفتح كيانها الأنثوي من لحظة لقائها «محمد» الرجل الذي ستحبه، وبداية انطلاق هذا الوعي بالذات والآخر، سواء عبر مقارنتها نفسها ببطلات السينما، أو عبر رؤيتها محمد أنه شاب مختلف عن كل الرجال والشباب الذين عرفتهم من قبل: "أغني وأنا أتصور أني البطلة التي تطرز الوردة الحمراء المكتملة على القماش، التي أبعد عنها حبيبها لأنه غني وهي فقيرة" [70] لا تتمكن «كاملة» من أن تتراجع عما تحس به من حب نحو «محمد»، رغم تقاليد المجتمع الذي تحيا في ظله، ورغم زواجها تستمر في لقاء محمد، خاصة بعد أن فشلت كل محاولاتها للتخلص من هذه الزيجة. تسعى «كاملة» إلى مقاومة زواجها من زوج أختها بكل ما لديها من قوة نفسية وجسدية، تهرب إلى الجنوب حيث يقيم والدها مع زوجته، وتظل لمدة شهرين، لكن الأب يعيدها إلى بيروت بعد أن يأخذ المال لقاء عودتها. و تجبر على الزواج وتتعرض الانتهاك الجسدي و إن هذه الانتهاكات الجسدية التي تتعرض لها «كاملة» عبر إجبارها على الزواج من زوج شقيقتها، وتوفر الشرعية العائلية لحماية هذا الانتهاك من الأم، وزوجة الأخ والأب، والأخ، ستعمق جروح الكينونة من جديد ويزداد إحساس «كاملة» بانتهاكها الجسدي، لكن هذا الإحساس يدفعها للتمرد، لا للرضوخ والطاعة. تعي كاملة أنها نفذت حكم «الأسرة» بالاستسلام لهذا الزواج، لكنها في الوقت ذاته تعمد إلى القيام بكل التصرفات التي تمنحها مساحة من الحرية التي أخذت منها، فلا ترضخ «كاملة» لأوامر زوجها بالتنظيف، ولا تستسلم لأحكامه في الاقتصاد بالنفقات، بل تقوم بما تراه مناسبًا لها.. سأقدم عدة صور لتمرد «كاملة» المادي على الأشياء، واللجوء إلى ذاتها الداخلية لتحقيق توازن مفقود في واقعها :

---

[69] مجلة نزوى، كلمة رئيس التحرير، 1 اكتوبر 2013

[70] الرواية صـ 57

"سرعان ما تأكد زوجي أني خلقت من طينة تختلف تمام الاختلاف عن طينة شقيقتي المتوفاة، فأنا لا أحمل أيًا من صفاتها: الصبر – النظافة – الكد – الرزانة – مهارة ربة البيت القديرة"[71] .

أما التمرد النفسي الذي تقوم به «كاملة» فيحدث خلال ركوبها مع عائلتها القطار حين يذهبون للشام، تفكر كاملة وهي في الشام أن تهرب، لكنها لا تجرؤ على تنفيذ هذا الأمر. وتتمرد «كاملة» على سلطة الطاعة الدينية بألا تتبرع بالمال في ضريح السيدة زينب، كما طلب زوجها، وتتمرد في تفكيرها بالهرب ثم تتمرد في حوارها مع ضابط شاب لا تعرفه وتوهمه بأنها غير متزوجة، كي تشجعه على خطبتها :"أبتسم له مشجعة.. أسرع، وأعطيه اسمي وعنواننا وأعطيه اسم زوجي على أنه اسم أبي يودعنا الضابط وهو يضع يده على قلبه، ويبتسم لي، أتمنى لو أن زوجي هو فعلاً أبي»، ولم يكذب الضابط الخبر إذ دق بابنا مساء اليوم التالي ومعه والده.. يتأهل زوجي به، كذلك شقيقي العابس وكل ظنه[72]ما أن الضابط جاء يطلب يد ابنة شقيقتي المتوفاة لكن الضابط ينطق اسمي أنوح وأبكي لأني لم أصبح خطيبة هذا الضابط الجميل"

وولدت فاطمة لكاملة و هي لا تملكنظرًا لصغر سنها وعيًا بفكرة الجسد وفكرة الأمومة، لأنها لم ترى الحقبة التي تتعلم فيها الفتاة فركة الجسد و فكرة الأمومة، هي كانت طفلة و فجأة تكون أما، فهي لا تزال تحمل الأحلام و الأفكار الحرة والتوق إلى السينما، و تبدو الأمومة في حياة كاملة طريقًا لانتزاع جزء من حريتها المأخوذة، ومن صباها وأنوثتها المصادرتين" رغم حبي الشديد لمولودتي فاطمة إلا أني كنت أنسى وجودها في حياتي أحيانًا، خصوصًا وأنا أسمع

[71] الرواية صـ 89
[72] نفس المرجع صـ 101

الأغاني فأتوق إلى مغادرة البيت قبل انقضاء المدة المطلوبة وهي أربعون يومًا، أتوق إلى الذهاب إلى السينما، إلى ضجيج المدينة" [73]

و بعد أن تكون كاملة امرأة فهي تعي بأنها قد تحولت إلى المرأة و هناك لها حقوق، و من الممكن أن تمنحها بعض المتعة والمرح ضمن حياتها الجافة و المهملة و هي تقول تتملكني الشجاعة لإقامة «يوم استقبال» أسوة ببقية النساء الثريات ومتوسطات الحال اللواتي كن فخورات بحسبهن ونسبهن، أو من كن مثلي يعشقن الغناء وحضور الأفلام السينمائية.. لكن زوجي لم يكن يحب الزيارات، وكان ضد شرب القهوة وتقديمها، وينسب ذلك إلى ضياع الوقت، وقد أجبرته على أن يأتي لي بنوع واحد من الشوكولا ومن الملبس الأبيض.. وكنت أشتري البن والأزهار سرًا ثم أوزعها فور انتهاء الاستقبال على الجارات خوفًا من أن يراها زوجي، ويجري معي تحقيقًا: من أين أتيت بها؟ وكيف أنفق المال على زهور ستذبل وتموت؟ إن التوق الذي يشد كاملة نحو حياتها الداخلية لا يخبو مع قدوم مولودتها الأولى «فاطمة» ولا تنطفئ رغبتها نحو السينما والغناء والحب، بل إنها تعمل على تطويع حياتها الجديدة للحصول على جزء مما تحلم به في خيالها، لذا نراها تتجرأ على اصطحاب النسوة ودخول صالة ليلية. بناء على ما تقدم تتضح الحياة الداخلية النشطة التي تحياها «كاملة»، إنها تتوق للحب، للفن، للفرح، وهي عاجزة عن الحصول على هذا التوق سوى عبر التحايل على الواقع المحيط بها بدءًا من أسرتها التي لم تنسلخ عنها رغم زواجها، ثم هناك وجود زوجها وابنتها، إلا أن كل هذه العوامل لم تشكل هزيمة لروحها المقاتلة، إنها تسعى بكل ما لديها من طاقة للحصول على ما تريد رغم إدراكها العقاب الذي يمكن أن يلحق بها في حال تم اكتشاف أمرها، لكن هذا التوق أيضًا يمكن النظر إليه على اعتبار أنه الطريق لمعرفة الأنوثة في داخلها .

---

[73] الرواية صـ 108

يمر عامان على زواجها و لم تتذكر محمد خلال ذلك، و تكتشف عن طريق أخت محمد بأنه هو محمد من يرسل باقة أزهار كل يوم و خاصة عقب ولادة فاطمة هكذا تندفع كاملة وراء هذا الحب للشاب الذي تراه يشبه فناني السينما. ولا تقدر على التراجع عن الإحساس بتجلي الحب، وبالخوف أيضًا لأن اكتشاف هذا الحب سيجر عليها الويلات والمصائب الاجتماعية، فهي تعيش باستمرار حالة رعب من أخيها وزوجها، تخاف أن يكتشفا أمر ذهابها للسينما، تخاف أن يعرفا أمر شرائها للأشياء النسائية التي تراها في المجلات والأفلام، لكن رغم ذلك يمنحها التفكير بمحمد سعادة لم تعرفها من قبل. لكن هذا الخوف لم يمنع «كاملة» من كسر التابو الاجتماعي الذي يحول دون لقائها بمن تحب، لأن هذا الحب يمنحها الإحساس بذاتها المفقودة، ويعيد إليها الإحساس بكيانها الأنثوي والإنساني في آن معًا. إن هذا الحب الجريء، المقاوم الذي يتحدى كل التقاليد والأعراف الاجتماعية يولد عند «كاملة» حالة من التساؤل عن حياتها ككل، وعن وضعها كزوجة لرجل أجبرت على الزواج منه، مما يدفعها للتفكير بالتمرد على هذه المنظومة الأسرية التي تم التعامل مع كاملة» فيها على أنها شيء لا إنسان. إن «كاملة» ترى في حياتها انعكاسًا لأفلام السينما، وليس العكس، إن حياتها هي فيلم يشبه الأفلام التي تشاهدها، من هنا تعيش كاملة في خيالها أكثر من الواقع، وتقارن حياتها مع حياة بطلات الأفلام وواقعها مع واقعهن.. واقع الحب المقموع بسلطة الأهل، وواقع الأنوثة الغائبة أمام افتقاد الذات الداخلية وضياعها:"أخرج من فيلم دموع الحب وكلي لوعة على موت البطلة نوال، الأفلام تحاورني من جديد، إنها تعكس حياتي، أنا مثل نوال تزوجت كما فرضت علي الظروف، وها أنا مثلها أجد الحب لكن يداي مكبلتان خلف ظهري بزواجي وبطفلتي وبالجنين الذي في بطني"[74]، وولدت حنان و كاملة سمتها بحنان أخذا من السينما، غير أن زوجها على سفر الحج عندئذ أكد لها أن تسمي مصطفى لوكان ولدا و زينب لو كانت بنتا، لكن لم تستمع إليه

[74] الرواية صـ 142

كاملة و سمت ابنتها بحنان، وهي تعرف بأنه لا يغير الإسم خوفا من تكلفة تغير الإسم رسميا. لكن «كاملة»في هذا الحب تعيش صراعًا داخليًّا بين خوفها من اكتشاف أمرها وعدم قدرتها على التخلي عن حبيبها، وتزداد حدة هذا الصراع عندما يصل خبر هذا الحب إلى أسماع الزوج. تعاني كاملة الخوف، بل رعب الفضيحة وتتذكر في داخلها كيف يتم التشهير بالنساء الخائنات في القرى :ولم أهدأ إلا عندما تمر ببالي فجأة صورة المرأة التي طوفوها في النبطية أجدني أشكر الله أني في بيروت ولو أني ما زلت في النبطية وانتشر خبر خيانتي لزوجي وعلاقتي بمحمد لكان طاف بي أهالي النبطية في القرى وجوارها، بعد أن ركبوني بالمقلوب على ظهر حمار «أزعر، من غير جلّ» [75] يتضح في هذا المقطع مدى القهر النفسي والجسدي الذي يقرر مصير النساء، ويحدد وسيلة التشهير التي تناسب الحالة التي لا يرضى عنها والتي يتم اعتبارها خروجًا على الأعراف الاجتماعية. لكن «كاملة» هنا لا تعتبر ما تقوم به خطيئة، بل إنها تتجاوز فكرة الخطيئة إلى فكرة الحصول على التعاطف الإنساني من القارئ لبطلة قادتها الظروف الاجتماعية إلى سلسلة من العذابات النفسية والإجتماعية، ولعل هذه العذابات لم تتوقف عند حدودها الذاتية، بل امتدت إلى مصير أطفالها.

كاملة لم تتوقف من لقاء محمد و كانت تقابله مع ابنتها، حتى اكتشف زوجها عن طريق أخ محمد الذي وقع في حب مع ملاك ابنة شقيقتها، و رفضته، فأخذا الثأر منها بلغ زوج كاملة و أخبرها كل شيء بالتفصل، قد أتى هذا بالكارثة لكاملة و طلبها زوجها أن تضع يدها على المصحف الشريف و تقسم هل هذا خبر صادق، و كاملة تكذب بكل جرأة و هي لا تبالي بالقسم الكذب.

محمد كان في حب شديد معها و لم يقدر أن يمنع نفسه بعيدا منها و ذهب إلى شقيقها عاشق العود طالبا إليه مساعدته من أجل تطليقها من زوجها، فقد أخذت الأمور والأحداث تمر بسرعة،

[75] الرواية صـ 186

و هي حصلت على الطلاق من زوجها الشيخ و تزوجت بعشقيقها محمد. كاملة لم تبال الزوج والأخ العابس و الأم و المجتمع و انساقت وراء حبها و تشوقها و خيارها، و اختارت حرية اختيار الزوج ما إن سنحت لها الفرصة، و هذه المرة أيضا فقدت و قامت بتضحية عدة أشياء ثمينة وغالية لأجل الحصول على مرح و سعادة و طمأنينة النفس والذات آخذة الثأر ممن دفعوها إلى حيث ضاعت طفوليتها و حريتها. كسرت القيود و تجاوزت الحدود و أصبحت كاملة مثالية لآلاف امرأة مكبلة بسلاسل التقاليد و الاضطهادات والاستغلالات، و لا شك فيه أن الأنثى هي تتكاتف مع الذكور في القضاء على الأنوثة.

الفصل الثالث

قضية التعليم للمرأة

سبب كتابة هذه السيرة الذاتية هو الإلحاح مرارا من كاملة لابنتها لاستكشاف المواضيع المعتعلقة بالمرأة التي يستحي المجتمع الذكوري النقاش عنها كل مرة. غير أن كاملة لم تسنح لها الفرصة للذهاب إلى المدرسة لكن الشوق كان دائما في داخلها إلى التعليم و الذهاب إلى المدرسة و هي كانت تحسد على الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة في زي مدرسي، و قذ اهتمت الكاتبة بهذا الموضوع أيضا خلال قراءة هذه الحكاية قد ظهر لنا بأن حرمان المرأة من التعليم بمثاة حرمانها من الحياة. الأب يبذل كل الجهد لأجل تعليم الأبناء و تثقيفهم لكن لا يعتنون بتعليم البنت و يجعلها محرومة من غذاء الروح. و لا يدرك بأن تعليم فتاة مثابة تعليم عائلة بأنها هي من تقوم بتربية أولادها و هذا أمر لا يجحد بأن الأم لها دور أكبر في تربية الأولاد و تثقيفهم و دور الأب يأتي بعدها في بناء مستقبل الجاليات القادمة.

حتى الحمام بيروح المدرسة، هذا عنوان لفصل في هذه الرواية، كأن الكاتبة قد اهتمت بكثير إلى موضوع حرمان البنات من المدرسة كما كانت شائعة في الدول الخليجية و خاصة في لبنان، و كاملة تشكو من أمها "حتى الحمام بروح عالمدرسة هون، و حياة الله و حياة النبي وحياة الإمام علي" أقول لأمي، فأنا منذ أن حللت بيروت و أنا أرى الحمام يطير أسرابا في حلات، ثم يتفرق و يتجمع و ثم يغط و يطير، ينخفض و يعلو" وجدتني أحسد الحمام، تمنيت لو لأني حمامة حرة، طليقة، بعيدة عن البيت و عن أنظار شقيقي العابس، و زوج شقيقتي، حتى عن أنظار شقيقتي التي كانت عالدلة، تحبني لكنها قليلة المزاح، و نادرة الضحكات. أتمنى لو أني تلميذة أستمع إلى أوامر المعلمة، و أجلس في الصف مع بنات في مثل عمري، و لم أقل لأحد إني أود الذهاب إلى المدرسة حتى لا أبيع القبات، و حتى لا أساعد شقيقتي في أعمال البيت.س وجدتني أطلب إلى شقيقي، عاشق العود أن يتوسط لي من أجل أن يرسلوني إلى

المدرسة. [76] و كاملة وصلت إلى عشرة من سنها لم تجد الفرصة للذهاب إلى المدرسة، لأن الأم ماكانت لديها استطاعة لإرسالها إلى المدرسة و الأخوات و الإخوان من الأم كانوا غير راضين بتحمل مسؤولية أكلها و شربها فضلا عن إرسالها إلى المدرسة. و عندما هاجرت كاملة مع أمها إلى بيروت بعدما رفض ابوها تحمل مسؤوليتها و أخيها و أمها، فوصلوا هناك لكن الطفولة لم تجد مساحة لاستكشافها و التمتع بها. بل أجبرت من قبل شقيقها و زوج شقيقتها أن تبيع بخمس قبات يوميا كي تتحمل كلفة حياتها بنفسها بدلا من أن تذهب إلى المدرسة و تقرأ وتكتب و تلعب مع زميلتها. كاملة تسير في الحي و الأحياء المجاورة لبيع القبة، و تفتح امرأة بابا و تسأل إذا كان لديها عائلة فتمسك رأسها و تشتري كل ما تحمله من قبات، و توصيها أن تنتبه حالها و بأنها عليها الهرب إذ فتح الباب لها رجل فهي تسأل أمها "لماذا لا ترسلني إلى المدرسة، و كلي ظن أنه علي أن أرسل إلى مكان ما حتى في البيت، إذا بيروت غير النبطية؟ لكن أمي لا تجيبني إلا بالتنهد، و أفهم أن الأمر لا يتعلق بها، و لا حتى بشقيقتي، بل بزوج شقيقتي و أيضا بشقيقي العابس، و عما لن يشتريا لي الأقلام والدفاتر. و أخذت أبكي و أنوح، وإذا بأمي و بشقيقتي تهرعان محاولتين إسكاتي و هما تخيفاني بزوج شقيقتي: "إجا ولك إجاليك" تما كما كنا نخيف بعضنا بعضا في النبطية.. من الغول والضبع و إبليس" [77]

الشقيق العبوس و زوج شقيقتها قاما بإضاعة حق أساسي لكاملة، و أبعداها من ماء و هواء الحياة الحقيقة و هو التعليم، كاملة كانت تتوق إلى الذهاب إلى المدرسة و تتحلم أن تكون طالبة و تجلس في الصف مثل جميع الطلبات أمام المدرس، و هي تطلب من أمها و كل من في بيتها لسماحها بالذهاب إلى المدرسة كي تتعلم الكتابة والقراءة، و في الرواية هي نفسها تصرح في لقاء أول مع محمد عندما سألها لماذت تتعلمين الخياطة؟ " أسأل كل يوم من في ا لبيت، لماذا لا التحق بالمدرسة الحقيقية حتى أتعلم الكتابة و القراءة؟ لكنهم كانوا يرددون أني كبيرة يضحكوا

[76] الرواية صـ 26
[77] الرواية صـ 34

علي، و تفهمني أمي أن دوام المدرسة الحقيقية يستمر طوال النهار، و من سيأخذ الصبيان إلى المدرسة؟ و من سيحمل طعام الغداء لهما لزوج شقيقتي، و من سيساعد في الغسيل؟" [78]

كاملة **غير أنها ما سنحت لها الفرصة للذهاب** إلى المدرسة لكن شوقها إلى التعليم و تعلم مختلف العلوم و شوقها إلى الشعر و الغناء لا يمنعه من إجراء مسيرات التعلم ولو كان عن طريق السينما، هي تحضر السينما و تتبصر كل حركات و حوادث السينما بعين ناظرة و ذهن ذكي، غير أنها تشعر بنقص فيها بسبب عدم التعليم و عدم سنح الفرصة لها. هي كما تذكر بعد أن حضرت الفيلم الوردة البضاء مع شقيقتها منيفة و لم تقدر فهم اللهجة المصرية فهي تسأل كل من لاقاها من شقيقهاأو شقيقتها هل تفهمون اللغة المصرية؟

الكاتبة قد صورت المجتمع و أحوال بيروت بكل صدق و أمانة بالنسبة للتعليم و الدراسة. لأن الرجال كانوا متقدمين في هذا المجال أيضا و البنات دائما كان أهلها لم يعتن بتعليمها و يمهل بعثها إلى المدرسة. كما درست في قضية محمد قد سافر من الجنوب إلى بيروت لتلقي العلوم في صيدا، و هو كان ينتمي من أسرة نبيلة و أهلهم أمراء و شرفاء و هو يتطلع أن يكون له منصب كبير في الحكومة و يبدأ الشغل بوظيفة مسؤول الأمن العام. و يحتل مكانة مرموقة ليس فقط بين أهله و عائلته بل في المجتمع كله و يتم تعيينه كمحقق في قضية محاولة اغتيال قاضي المحكمة بأيدي ابن شقيقة كاملة الذي كان منسوبا إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1948. لكن محمد بكونه شريف الطبع و نبيل السلوك عندما وطدت العلاقة بينه و بين كاملة فهو لا يتظاهر بأنه متعلم و كاملة ليست كفؤا له. لكن كاملة كما ذكرت كانت تحمل ذوقا رفيعا وظرافة لطيفة، و خلال لقاءها بمحمد هي تقول بأن غرفته الذي تقابل فيه محمد"أقول إن غرفته

[78] الرواية صـ 54

كهودج الجمل فيسر لتشبيهي هذا و يهز رأسه أسفا لأني غير متعلمة، و يعدني بأن يعلمني القراءة و الكتابة بأسرع فرصة ما إن يستقر في عمله لأنه كان يود أن يترقى في وظيفته." 79

وخلال دراسة هذه الرواية، الحادثة العرضية التي أدهشتني بكثير هي أن كاملة بالرغم من دون الحصول على التعليم و بدون الذهاب إلى المدرسة تتلو لمحمد الغناء الذي كان ألفها و هي كانت في الجنوب " لا تفرحي يا سنابل الشعر الطويل..... بكرة المنجل بيتحنجل و بخرمشلك بطنك، و بقصلك شعرك الطويل ... و بتخلص المواويل" يطلب إلي أن أقسم بالله إن ما تلوت عليه هو من كلماتي. أعرف لماذا لم يصدقني لأنه أمسكني القلم مرة حتى يعلمني كيف أكتب اسمي، و لم أعرف كيف أمسك به و لم يحرز أني أستطيع أن أكتب بعقلي من غير ورقة أو قلم." 80

و محمد كان يقرأ لها الرسائل التي كانت تصله من الخارج أو من بلدته و كاملة تستمع إليه وتتمتع بها، و الكاتبة قد كشفت عن الجانب الآخر أيضا كيف واجهت كاملة الخجل بسب عدم التعليم، عندما طلبت من محمد جاكيت كي تعطيه عبدالوهاب الممثل في الفيلم و تقول كان عبدالوهاب يغني "يا ما جاكيت و بكيت" فيضحك محمد و يقول لوكنت بتروحي عالمدرسة كنت فهمت شو عم يغني عبدالوهاب" [81]

بالرغم من أن كاملة لم تسنح لها الفرصة للذهاب إلى المدرسة لتكون طالبة رسمية أمام مدرس رسمي في المدرسة النظامية، لكن هي لم تمنع نفسها من التعلم فن الحياة لو قصرت من التعلم من الكتب فشربت من موارد السينما و عندما حضرت "بائعة التفاح" مع محمد هي ترى نفسها بأنها بائعة التفاح و محمد هو الأرستقراطي الذي يقرأ و يكتب. و تقول أن السينما علمتني الحياة و أن بائعة التفاح لم يتسن لها حضور أي فيلم و إلا تعلمت أن تكون أرستقراطية من تلقاء

---

[79] الرواية صـ 148
[80] الرواية صـ 62
[81] الرواية صـ 59

نفسها، فالسينما أدخلتني و لاتزال تدخلني إلى مدرسة من نوع خاص. تعلمني التاريخ والجغرافيا، تحدثني عن بلاد اسمها أوروبا، عن الحرب، تعلمني فن الكلام، فن الموض والملابس، تدخلني إلى منازل فخمة و متواضعة تعرفني بسكانها فأتمنى لو أعيش مثل بعضهم، ثم أحمد الله أني أعيش أفضل من البعض الآخر. ألتقي على الشاشة بمن هي مثلي، وبمن هو مثل شقيقي العابس، و من هو مثل زوجي.

أتعلم كيف يتنزه البشر و كيف يفترشون الأرض و يحتسون البيرة، و ينعمون بالطبيعة، بينما تكون سترات الرجال ملقاة إلى جانبهم، و معاطف أو شالات النساء موضوعة بإتقان على العشب. أتعلم كيف تجلس الممثلة، كيف تبكي، كيف تلتفت. أتعلم أن عقد اللؤلؤ هو من المجوهرات الثمينة، لذلك تشبه الأسنان المتساوية الناصعة البياض بحبيباته، و لا تشبه بعقد العقيق، أو بالكارب الأصفر أو بحجر جيئ به من الحج. أتعلم كيف يلتف أفراد العائلة حول طاولة الطعام و يأكلون. كيف يمسحون أفواههم بالفوط لا بأكمام ملابسهم. تعرفني السينما بالأثاث المتناسق، بأن الزهور ليست للحقول بل لتعيش في البيوت، و في الأصص، والآنيات الزجاجية. و البرهان على ذلك أني أجبرت زوجي على أن يشتري لي عامودين من الخشب وكأنهما شخصان يمدان كفيهما من الجهتين. وضعت عليهما صدفة بحرية كمنفضة للسكائر ونويت على شراء لمبة حتى أضيئ كل من رأس العامودين الزجاجي. أتمنى لو أقف و أغني أغنية عمر الزعني إذا ما سألني شقيقي العابس أو سألتني أمي إلى أين ذاهبة: صارفين ما مشيت باليل و بالنهار بتشوف سينما على جنبة بار

بتشوف الناس طفات طفات كل الأجناس، كل الماركات رايحين جايين فايتين ضاهرين كلهم هاجمين عالسينما فايتين ضاهرين" [82]

[82] الرواية 134

الباب الثالث

دراسة تحليلية لرواية" حكايتي شرح يطول"

الفصل الأول: الفكرة الرئيسية في الرواية

الفصل الثاني: المنهج الفني في الرواية

الفصل الأول

الفكرة الرئيسية في الرواية

تكمل حنان الشيخ في حكايتي شرح يطول مسيرتها الأدبية الشاهدة، المحرضة والكاشفة لمجتمعنا. تدخل كالأشعة السينية في ظلام أنفسنا و تقاليدنا و حقيقتنا المرة بكل إصرار ومثابرة، غير مبالية إن كان هذا البوح الذي لا مكان له سوى الصدق يسبب الحرج والاستنكار.

حكاية شرح يطول هو سيرة حياة أمها "كاملة" احتفال بالحياة والموت، و شرح للنفس وطبيعتها. [83] هي حكاية عن المرأة الضعيفة التي لم تخف من قسوة المجتمع بمافيه عائلتها، ووقفت أمام دبابات و هدامات المجتمع الذي يقضي على الطفولية و يجبر القاصرة على الزواج بشخص يكبر منها بأربعين سنة، الرجال ليسوا مسؤولين عن هذه الحالة الصارمة فقط بل تشاركها النساء. لكن كاملة شخصية مركزية لم تنهزم و لم تستسلم بل حاربت جميع الرسوم والتقاليد. هذه الجرأة استمدتها من تجارب حياتها المرة التي كانت عبارة عن الجوع و الحرمان من التعليم و الإجبار على الزواج في ا لطفولة ثم الإنجاب و هي كانت بأربعة عشر سنة. هذه الحكاية ليست تماما مختلفة من القصص الأخرى، هي ليست نادرة من نوعها بل هي قصة آلاف من الفتيات في الخليج و خارجه حتى في بلانا الهند أيضا. غير أن جميع الخطوات التي اتخذتها و المسارات التي تخطتها لايمكن تبريرها بأسرها لكن النكتة المهمة هي أن المرأة في المجتمع الإسلامي خاصة تواجه كثيرا من الصعوبات و يجب القضاء عليها بأسرع وقت ممكن. وكاملة منها و الكاتبة حنان الشيخ هي ابنة بطلة هذه الحكاية هي قد أدت أمانة الصدق بحكي حكاية أمها و هي لم تخف لومة لائم.

---

[83] حكايتي شرح يطول الصفحة الغلافية

الحكاية تجري من خلال صوت الأم كاملة ومن خلال فصول معنونة بعبارات مستمدة بعض مرة من لغة الكلام الدارج، مثل"والله انك بتخيَّطي فستان للبرغوت"، أو"بتبكي مشان تروحي عالسينما وبترجعي من السينما عم تبكي"... ويظل السرد، في جزء كبير، قريباً من لغة الحكي الشفوي مستثمراً مكاتيب و مراسلات كان محمد، عاشق كاملة ثم زوجها الثاني، يكتبها بالفصحى، وكأن التعبير عن عاطفة الحب مرتبط اساساً باللغة الغنائية الرومانسية.

والدة حنان الشيخ "كاملة"تكن تعرفُ القراءْة والكتابة، وكانت تُعبّر عمّا تُريد بالصوَر التي ترسمها. والقصة كما كتبتها حنان هي سيرة ذاتية لوالدتها ترسّمت فيها حياتها من بدايتها في بيتهم المتواضع في جنوب لبنان وما عانته وأمها وشقيقها على أثر هجْر الوالد لهم وزواجه من أخرىوالتنكّر لحقوقهم ممّا دفعهم للأعمال الصعبة ، و تحكي عن محنة امها مع زوجها الأول وعن بيروت العام 1934 عندما رحلوا إليها من الجنوب لعيش هناك في كنف الأبناء من الزوج الأول. وفي بيروت لم تكن الأوضاع الاقتصادية أفضل... وهي طفولة يحاصرها الفقر والحرمان الى حد ان كاملة تضطر ان تشحذ لتحظى بقليل من الحلوى والدبس و بعض مرة تحاول أن تسرق في بيروت، فقد اضطرت الأم للعمل وعلى دفع ابنتها كاملة التي لم تتجاوز العشرسنوات، إلى طَرق أبواب البيوت للكسب. تتكشّف لها الحياة في تجلياتها المتنوعة، الصعبة حيث كانت تجبر أن تتجول في االسوق لبيع خمس قبات يوميا والمسلية أيضا، وبخاصة افلام السينما المصرية التي استولت على لبّها و ذهنها. وعلى رغم الرقابة القاسية التي يفرضها عليها كل من زوج شقيقتها المتزمّت وشقيقها العابس، فإن كاملة عرفت كيف تتسلل الى مشاهدة"الوردة البيضاء"و"رابحة"و"يحيا الحب"...، وتجعل من خلال شخصيات هذه الأفلام وحواراتها و أغنياتها منصة الشعور بالحرية و هي تتخيل بطلة تلك الأفلام و تفرح بفرحتها وتبكي على شقائها و تطلب وسيلة الحرية من خلالها. وتنسى من خلاله المناخ الديني الشيعي المتجهّم الذي يقهر رغباتها. و في صورة فاطمة الخياطة تجد مؤانسة و مشفقة و عطوفة تعامل معها بحسن في وقت يبدو كل شيئ حتى الأم ضد القدر، ومن خلال الجارة، فاطمة الخياطة،

تعرفت إلى الشاب محمد الذي سافر من الجنوب إلى بيروت للدراسة ويحب السينما مثلها. محمد الذي جذبته كاملة الصغيرة بجمالها ورشاقتها وعفويّتهاوصغر سنّها وصوتها الجميل فطاردَها حتى نجح في كسب قلبها ليعيشا قصة حبّ عنيفة نشأت بينهما عاطفة حب جارفة، إلا ان موت شقيقتها جعل العائلة تُرغم كاملة، وهي في سن العاشرة، على ان تتزوج من زوج شقيقتها البخيل أكبر منها أربعين سنة، المنغلق على ذاته والمنصرف الى تجارته و كانت أمها و زوجة شقيقها و شقيقها كلهم مشاركون في هذه الجريمة البشعة... كانت ثمرة هذا الزواج ابنتين: فاطمة وحنان، لكن كاملة استأنفت علاقتها مع حبيبها محمد المتيّم فقد حرصت ومحمد على اللقاء المستمر في غرفته وحتى أقامت معه العلاقة الجنسية التي كانت "حنان" ثمرتها آلى حدّ ما. وتتوسّع كاملة في وصف زوجها بكل النعوت السلبية و ألح عليها ان تطلب الطلاق ليتزوجها هو.وكانت اخبار لقاءاتهما الغرامية انفضحت، فلم يجد الزوج بدّاً من تطليقها، فتزوجت من محمد وولدت معه خمسة اولاد وبنات، متحملة التقشف وضغط التقاليد... بين إشراقات زواج الحب وعتمات الملل والشك، ظلت كاملة متلألئة بمرحها وسخريتها وتعلقها بالغناء ومشاهدة الأفلام. إلا ان الموت اختطف زوجها وحبيبها محمد، سعادتها انتهت بدأت مواجهة كاملة وأولادها لصعاب الحياة ووحوشها من جديد .فتابعت الرحلة وحدها ناشرة الفرح والدعابة بين جاراتها وأفراد عائلتها. وبانفجار الحرب الأهلية عام 1975 وجدت كاملة نفسها تفتقد أولادها الواحد تلو الآخر، ففاطمة وحنان مع الأولاد يسافرون إلى لندن . وتلحق بابنتيها من محمد إلى الكويت ومن ثم تلحق بابنها البكر إلى ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة. ولكنها تقرّر العودة إلى لبنان لتعيش في وطنها وبين أهلها حتى كانت نهايتها بأن مرضت وفارقت الحياة وهي وسط أفراد بيتها.

في هذه السيرة الذاتية المكتوبة عبر الحكي الشفوي وشذرات من رسائل محمد الى كاملة، وعبر المعايشة والتخييل، تحتل شخصية الأم بؤرة الدائرة التي تنداح منذ ثلاثينات القرن الماضي الى نهايته، لتلامس تجربة امرأة استطاعت، على رغم أميتها وقسوة بيئتها، ان تلتقط نبضاتٍ

ولحظات دالة في مسارها الخاص وفي علائقها بالمجتمع المنغمر في تحولات متسارعة. لم تمنعها الأمية من ان تستوعب تعقيدات العلائق البشرية وثقل التقاليد والجمود الديني. من هذا المنظور، يمكن القول إن كاملة أنموذج للمثقف الواعي، المتخلق من صلب التجربة والإحساس والحدس. كانت، في سلوكها ومواقفها، تستند الى منطق الحياة وإلىطاقتها الداخلية التي تحثّها على التحدي والمغامرة. كان من بين افراد عائلتها من يفرض الوصاية على المرأة ويشيّئها ويقمعها باسم قيم موروثة جامدة. وكانت كاملة تحس ان الحياة تستحق ان تعاش من خلال علائق الحب والغناء والمرح والسخرية. وقد وجدت في افلام السينما المصوية جسراً ربطها برحابة المتخيَّل، وعوَّضها عن سجن البيت وأعباء الزوجية: "افكر لو أهرب فأدخل السينما ومنها الى الشاشة حيث اعيش مع الممثلين الذين كانوا يتحدثون في الفيلم بكل رقّة، وينشغل بال معظمهم على البعض الآخر، وأتأكد من انهم من طينة اخرى لأنهم ذهبوا وتعلموا في المدارس". وعندما تعرفت الى محمد الطالب الرومانسي، لم تتردد في الاستجابة للرغبة المكبوتة في اعماقها والتي كانت تعيشها فقط من خلال مشاهد سينمائية. لذلك استمرت تحبه حتى بعد زواجها القسري، غير مبالية بتهديدات الزوج والشقيق العابس، ولا باتهام الناس لها بالخيانة الزوجية... اختارت الحب والحياة متحدية الجلاد والقيود - على حد تعبيرها - فاستطاعات ان تسترجع حريتها وأن تفرض على اسرتها المحافظة زواجها من حبيبها محمد. إلا ان ما يميّز تجربة"كاملة"، هو انها لا تتقصد الدفاع عن"قضية"او الانتصار لمبادئ معينة، وإنما هي، بذكائها وحساسيتها، تتجاوب مع الحياة في تفاصيلها ومفاتنها، مترجمة حبها للناس من خلال حرصها على ان تنشر المرح حولها محتفية باللحظات المضيئة وسط عتمات الاكتئاب والبؤس، من ثم، ينبض استحضارُها للشخوص بالحيوية والمتعة، على نحو ما يُطالعنا وهي تتحدث عن خالتها لتي تزعم انها بلعت فرخَ الحيّة المستقر في بطنها:"... وصار يكبر ويكبر... عم يلفّ ببطني بدّو يطلع"، وكانت قد جربت جميع الوصفات للتخلص منه حين كانت في الجنوب،"قليت بيض بالسمنة الحموية، بعت كيس برغل مشان شوية سمنة...وفتحت تمّي حتى

تشم الحية البيض والسمنة المقلية وتطلعومسكتْ حجر، ومقصوفة الرقبة تحركت وتحرّكت، وصلت لزلعومي وغيرت فكرها... معلوم تغيّر فكرها ما زالها عم تشرب وتاكل في بطني على باب المستريح".

قد تبدو سيرة حياة كاملة في خطوطها العريضة عاديّة كحياة الآلاف من الفتيات العربيات في البلدان العربية. لكن لتميّز فيها في التفصيلات والأحداث والمُمارسات التي كان يرفضها الأهل ويعاقبون عليها ويدينُها المجتمع. فكاملة منذ صغرها انحازت إلى جانب أمّها ورفضت طاعة والدها والبقاء عنده فغافلته وهربت. وفي بيروت كانت تتحدّى العيون الملاحقة لها وتقابل أصحابَها بالسخرية. كانت تحلم أن تكون ممثلة سينما ولهذا كانت تذهب دون علم أفراد بيتها لحضور أفلام سينمائية وكانت تتقمص شخصية البطلة وتحياها بكل تفاصيلها. وعندما وقعت في حبّ محمد لم تهتم لعواقب ذلك وانساقت في حبّها رغم أنها كانت مخطوبة لزوج شقيقتها التي توفيت. ولم تستسلم لحكم العائلة بتزويجها القسري وتمرّدت، وعندما فشلت كل محاولاتها وأرغمت على الزواج رفضت اقتراب زوجها منها حتى تآمر عليها الجميع واغتُصبَت بالقوة. وفي علاقتها مع محمد تحدّت كلّ مفاهيم العائلة والمجتمع وظلّت تُقابله وتُبادله الحبّ حتى نجحت أخيرا بالزواج منه بعد إرغام زوجها على الموافقة على الطلاق منها.

وسيرة حياة كاملة هي سيرة حياة الكثيرات مثلها اللاتي عشن ظروفها التي عاشتها، وهي صورة بانورامية للمجتمع الشيعي الفقير في الجنوب اللبناني بكل عاداته وتقاليده ومفاهيمه وعلاقاته، وما يحدث لمَن يترك هذا المجتمع لينفتحَ على مجتمع بيروت المتفجر والمتغيّر أبدا. كما أن سيرة كاملة هي تأريخ للأحداث المهمة التي عاشها لبنان منذ سنوات العشرينات من القرن العشرين حتى سنوات السبعينات الأخيرة وأحداث الحروبات الأهلية اللبنانية في الخمسينات والسبعينات من القرن نفسه.كاملة تُمثّل هذا النموذج المتمرّد من الفتيات وحتى الشباب الذين رفضوا الاستسلام للواقع ونظروا إلى المستقبل يريدون ارتيادَه من أوسع بواباته

لا يقفُ أمام طموحهم أيّ عائق.لم يكن في تحدّيها للواقع المَعيش ما هو من الخوارق والمستحيلات وإنما كان الإصرار على الرفض والنزوع الدائم للتغيير والخروج على المألوف. وذلك يتمّ ببساطة وعَفويّة تقترب من البراءة الطفوليّة ولكن باستمرارية وثبات على الرفض والتحدّي والسّعي نحو التغيير مستفيدة من معايشتها لوالدَيها وما تميّز به كلّ منهما : الأم باصرارها على ملاحقة الزوج الهاجر لها والمتزوّج عليها ومطالبته بدفع ما يُستَحَقّ منه، ومن ثم تركه والابتعاد عنه إلى الأبناء في بيروت لخوض حياة جديدة . والوالد الذي عشق نفسَه وأحبّ المرأة ووجد فيها سعادته وفرحَه فلم يتنازل عنها، ولأجلها ترك الزوجة والأولاد. وكما والدها أيضا كاملة كانت تخون زوجَها وتتحدّى المجتمع بعاداته وتقاليده، وتلتقي حبيبَها، وحتى تُضاجعه، ولم تهتم بكلام الناس وتعليقاتهم.ومن ثمّ تركت زوجَها وابنتيها من أجل الزواج من حبيبها الذي اختاره قلبها، ولم تشعر بالندم.

يحفر الحوار، بلغته العامية الجميلة، أخاديد في مخيلة القارئ ويضيء مراحل الانتقال التي عرفها لبنان اجتماعياً او في لحظات التوتر والاحتراب مثل سنتي 1958 و1975 ... وكل ذلك يأتينا عبر السخرية والمشاهد الفكاهية ومن دون قصدية اخلاقية؟ بل نجد كاملة تسخر من احد اخوتها فتسميه"شقيقي العقائدي". وحتى بعد موت زوجها الثاني ومواجهتها الوحدة والفقر، لم تكف عن مرحها، ولم تقلع عن كرمها وإقبالها على المتع المتاحة... كأن كاملة نهر متدفق يعرف كيف يتحايل على الحواجز والعقبات ليتيح للذات ان تحقق رغباتها وتظل في دائرة الفرح والاستمتاع.

وامتداداً لمنظور هذه القراءة، نجد أن صاحبة السيرة الذاتية تفتحها على بعدَي الحاضر والمستقبل من خلال تصالحها مع ابنتيها فاطمة وحنان اللتين أهملتْهما عندما تزوجت من حبيبها محمد. ويتخذ هذا التصالح امتدادات أبعد عبر حواراتها ومناجاتها مع ابنتيها حنان التي أصبحت روائية تعبر عن مشاعر تحرك وجدان أمها كلما تكلمت حنان كشفتْ لي عن نفسي، وعرفتُ

ان الحاضر هو الماضي من غير أن أدري، كأنني أتلبّس شخصيتها وأصبح هي"، أو تخاطبها في رسالة أكملت كلماتها:"... وسمعت كلامك العذب الرنان، فاسترجعت جمالي من جمالك، واسترجعتُ ذكائي من ذكائك والشجرة العارية تُنبت من جديد أوراقاً لامعة".

عند هذا المستوى، يتداخل مساران، وتتعانق حياتان: حياة الأم الأمية وحياة حنان الروائية التي تعيد كتابة ما روته"كاملة"متذكرة ومتخيلة مشاهد ماضيها. يغدو النص - نتيجة لذلك - كأنه كتابة على كتابة وتخييل على تخييل، وامتزاج للماضي بالحاضر، وتآلف بين صوت الابنة وصوت الأم. ولعل هذا ما يجعل حنان تخاطب امها قائلة:"لَوْ علّموك كنتِ أنتِ الكاتبة مش أنا".

إن هذا"التضعيف"لمحكيات السيرة من خلال الصوغ الروائي هو عنصر جمالي وتخييلي في آن ويُضفي على"الوقائع"ابعاداً إضافية، او كما تقول كاملة عن علاقتها الغرامية بمحمد:"كنتُ اعيش في هذا النعيم الذي يُغدقه عليّ الله مرتين: مرة وأنا ألتقي محمد بشحمي ولحمي، ومرة اخرى وهو يكتب عن لقاءاتنا فور وصوله الى بيروت ليلتقي بي ولو على الورق".

تروي الأم ما عاشته لابنتها، وتقرأ حنان ما كتبه محمد مستحضرة علاقتها بذلك المسار، ثم تكتب سيرة ذاتية للأم فتأتي متعددة الزوايا والأصوات واللغات، متلألئة بحضور"كاملة"الكاسح الذي يُشعرنا بأن ما عاشته كان أقوى من التخييل، وأكثر إقناعاً من كل حبكة أو مفاجآت: فعندما يتحقق حب الحياة في الأعماق، كأنما مالك هذا الحب هو أقوى من مكائد الدهر والبشر.

وأعتقد بأن حنان الشيخ، بعودتها الى علاقتها بهذه الأم الفاتنة إنما تعود إلى رحم الحكايا وأصل الحياة، الحياة التي تتخطى في تجددها كل البدايات و"الأصول"، مؤشرة على استمرارية الفعل البدئي الذي يوهمنا - لحسن الحظ - بقدرتنا على استعادة الزمن الضائع كلما غمسنا الريشة في المحبرة التي تقول عنها كاملة:"إن المحبرة كالبئر داكنة وما تخطه الريشة يشبه المسامير على

الورق". لكن مسامير حنان الشيخ تبعث النشوة وتُغرينا بالاستسلام لعالم الأم الشجاعة ذات الكينونة الشفافة والحب المطلق لكل ما يمت بصلة إلى الحياة. و تحث النساء على الالتزام بعدم تحميل المسؤولية على الآخر للتخلي من مسؤولياتها و تحرض على المكافحة و المدافعة و التحارب ضد التقاليد و التمرد على العادات السيئة التي أودت بحياة آلاف مرأة و انتزعت روحها وحريتها وحقها. المرأة لها حق مثل الرجل، لها أن تتمتع حياتها حسبما ترغب. لكن يجب أن تتحذر من نعرات و هتافات زائفة تستهدف حرمات النساء و تهتفها لغرض شخصي باسم الحرية و التصرف المطلق. الحرية في الحقيقة إذا كان ضميرها حيا ويقدر أن يستحسن شيئا لو كان حسنا و يستقبحه لو كان قبيحا.

الفصل الثاني

المنهج الفني للرواية

حكايتي شرح يطول، لو ما الجرادة ما علق عصفور

كاملة تحكي قصتها لابنتها مبتدأة: حكايتي شرح يطول، لوما الجرادة ما علق عصفور، والكاتبة لم تسألها ما تعنى هذه الكلمة. فالكاتبة في نهاية الرواية تفسر بنفسها "حكايا بكايا، شرح يطول، لو ما جرادة ما علق عصفور" عن ملك كان يتمشى في البساتين عندما دخلت جرادة بكم ثوبه الفضفاض، و إذا بعصفور يلحق بها داخل الكم، يخيط الملك الفتحة و يجلس على العرش سائلا رعيته: ماذا في كمي؟ و لم يعرف أحد ما في كم الملك، إلى أن وقف بين يدي الملك رجل يدعى عصفور، كان قد تلوع من حب المرأة اسمها جرادة، و لم يكن على باله إلا صورة حبيبته، فاستهل حديثه قائلا: حكايا بكايا، شرح يطول، لوما جرادة ما علق عصفور. [84]

قد اختارت الكاتبة حنان الشيخ أن تروي قصّة والدتها بضمير المتكلم لأن الوالدة هي التي روت قصتها وحنان أعادت صياغتها وتحدّثت باسمها ونجحت في أن تكتبَ سيرة ذاتيّة يتوفر فيها الشرط المهم الذي حدّده فيليب لوجون وهو وجود تطابق بين المؤلف والسارد والشخصيّة.([85]) وما تنفرد به "حكايتي شرح يطول" أنها تنسحب على أربعة أزمنة هي:

أ- زمن وقوع الأحداث في الماضي البعيد. ب- زمن سرد الأحداث على الكاتبة في الماضي قبيل موت صاحبة القصة. ج- زمن الكتابة. د- زمن القراءة.

---

[84] الرواية صـ 380

[85] فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ترجمة وتقديم عمر حلي. المركز الثقافي العربي بيروت 1994 . ص 22

ومن الطبيعي أن تتفاوت الأزمنة وتتداخل ما بين الاسترجاع والاستحضار وفي حالة "حكايتي شرح يطول" تكون العودة للماضي والاسترجاع للأحداث على دفعتين:

الأولي: عندما روت كاملة صاحبة السيرة قصتها على ابنتها حنان . والثانية: عندما قامت الكاتبة حنان، بعد مرور سنوات على موت أمها، بكتابة ما سمعته وسجّلته في أوراقها.

وطبيعي أن تَتمّ في المرتين، خلال محاولة الذهاب إلى الماضي والاستعانة بالذاكرة لاسترجاعه وإحيائه تحت تأثير الحاضر بمفاهيمه وتغييراته، قَصَد السارِدُ أو لم يقصد، عمليات الانتقاء والاختيار والتقديم والتأخير لسَرد الأحداث ممّا يُبعد صفة الصدق الكامل عن السيرة الذاتية التي توخّتها الكاتبة بتقديمها لقصّة والدتها،فمهما حاولَ كاتبُ السيرة الذاتية التخلصَ من أثر الزمن الحاضر ، زمن الكتابة، والالتحام بالماضي فسيجدُ أنّه واهم وليس بمقدوره ذلك.

حنان الشيخ في كتابتها لسيرة والدتها، كما في رواياتها السابقة، لم تحاول الرقابةَ والحذفَ ومراعاةَ الآخرين، ونقلت لنا بكل صدق وأمانة مواقفَ وأفكارَ وممارسات أمّها كاملة التي بكل شجاعة تجاهلت الأقانيم الثلاثة المحرمة "السياسة والجنس والدين"وتمرّدت على مفاهيم الناس وقوانينهم،فعندما أحبّت وهبَت روحَها ونفسيتَها وحتى جسدَها للحبّ وللرجل الذي أحبته رافضة كل النصائح والتهديدات، وتجاوزت كلّ الحواجز والصعوبات حتى حققت التواصلَ معه والزواج منه،وعندما شعرت أن المراسيمَ الدينيّة المُتّبعة تُقيّد حريّتها وتضغط على أنفاسها رفضتها بسهولة ودون أيّ شعور بالذنب، فقد رفضت إدخالَ الشيخ المقرئ الذي أثقل عليها بحضوره اليومي بعد موت زوجها حتى ضاقت ورفضت فتح الباب له وسألته بتحدّ وآصرار

:"نعم شو بتريد؟ وإذ قال: أنا الشيخ اللي بيجي كل يوم أقرأ عن روح ابن عمّك. قالت له طاردة إيّاه: الظاهر إنّك غلطان بالبيت، ما فيش ميّت عنّا مش حرام تفوّل علينا"؟[86]

يبدو أنّ الكاتبة حنان الشيخ انساقت في كتابتها لسيرة والدتها فجعلتها تتحدّث بالنيابة عنها حتى بعد عجزها عن الحركة والكلام والوعي وحتى بعد مغادرتها للحياة وبعد مرور سنوات على موتها ممّا جعلني كقارئ أتساءل عن الحكمة في عملها هذا، ولماذا لم تقم حنان، التي ائتَمَنَتها أمّها على قصتها، بعد تدهور صحة أمّها ومن ثم موتها، بتسجيل ما كتبته بلسانها هي مؤكدة بذلك على إخلاصها لوصية أمها ووديعتها ومُظهرَة حبّها الكبير لتلك الوالدة التي كان لها التأثير الكبير عليها مما كان يُكسب القصّة المصداقية والواقعيّة والقبول أكثر. لكن الحقيقة التي يجب أن تُقال: إنّ حنان الشيخ في روايتها لسيرة والدتها الذاتية ساهمت في ترسيخ هذا الجنار في أدبنا العربي الحديث واستطاعت أن تُحقّق الشرطَ الأساسيّ فيه وهو وجود التطابق بين المؤلف والسّارد والشخصيّة.[87]

الشخصية السيرية و علاقاتها

نتيجة الشرط الأخلاقي يجب على كاتب السيرة الشخصية و إن تجلت في شكل روائي أن يكون لديه وعي بالشخصيات الفاعلة في نصه، والقارئ دوما يبحث عن علاقة المؤلف بشخصياته، وهذا ما يقودنا بطبيعة الحال إلى تساؤل: ما مدى علاقة حنان الشيخ بشخصيات عمله؟

وخاصة إذا علمنا أن البطلة هي والدتها "كاملة" و من هنا يتخذ النص السيري خصائص تميزه عن باقي النصوص، كما تتخذ الشخصيات أبعاد واقعية و تخرجها من فضاء النص إلى فضاء أكبر وهو مسرح الحياة. و يكتسب النص خصوصيته من أحقية الأحداث و الوقائع المروية في

---

[86] الرواية صـ 280

[87] نبيه القاسم، حنان الشيخ تروي لنا قصة أمها: حكايتي شرح يطول

النص، و من صلتها الوثيقة بالمؤلفة حنان الشيخ و خاصة بوالدتها كاملة التي تقوم بسرد حكايتها لابنتها الكاتبة وهي تؤكد بنفسها واقعية الأحداث الواقعة في الحكاية "اكتشفت و هي تروي لي و كأنني امتداد لها هذا ما جنني، و ضايقني لأنني عرفت كم هي موهوبة. إنما هي الكاتبة التي كان يجب أن تتعلم"[88]

هذا الاعتراف للكاتبة يؤكد طبيعة الحكاية التي تقوم بسرد حياتها، بوصفها السارد العليم، فالأصل في السرد الروائي أن يستأثر بالسرد راو عليم بكل شيئ. وهذه المهمة اضطلعت بها الساردة كاملة بوصفها الشخصية الرئيسية في النص التي تقوم بسرد تفاصيل و أحداث وقعت لها شفاهيا لابنتها حنان الشيخ المؤلفة التي تقوم بنسجها و تركيبها و نسقها لتظهر على شكل عمل فني منسجم له بناؤه الخاص. و استندت الكاتبة في بناء عملها إلى أحداث حقيقية في حياة والدتها و حياتها، و أعادت ترتيبها وفق ترتيب زمني متتابع حسب تاريخ والدتها، و مع تتبع فصول الرواية يعرف القارئ حكاية كاملة الشخصية التي ترويها، و يكتشف القارئ تدريجيا ملامح شخصيتها التي تتضح له من خلال النص، لكن هذا لايمنع من وجود حكاية فرعية في الفصول الأخيرة من الرواية، عندما تكشف الكاتبة عن وجودها الفعلي في النص كونها شخصية مساهمة في تطور أحداث الحكاية، و من جهة أخرى المؤلفة الشرعية لها، لذلك نميز حكايتين على مستوى النصوص:

1- الحكاية سيرية: تقوم فيها كاملة -أم الكاتبة- بسرد أحداث حياتها، وتعرض مختلف مراحل الحياة التي قضتها و من هذه الناحية يقرأ القارئ سيرة حياة كاملة و يخضع لقبول مصداقية الوقائع المروية.

[88] مكون السيرة الذاتية في الرواية حكايتي شرح يطول، ساميا بابا، صـ 44

2- الحكاية سير ذاتية: تقوم حنان الشيخ المؤلفة بكتابة حياة والدتها بشكل فني، إذ تقترح في على القارئ عقدا روائيا، على الرغم من وجود عناصر السير الذاتية في النص من طفولة الكاتبة إلى مراحل متقدمة من حياتها.

و بين حكاية الأم و حكاية الكاتبة يتشكل معالم النص السير ذاتي، والذي أحكمت الكاتبة بنائه وصياغة ملامحه المخرجة من واقعها، جاعلا منها تكتب نصا تنبض شخصياته بالحياة.

الشخصيات

يرتكز أي عمل أدبي له علاقة بالسرد على الشخصيات، فكلما كانت الشخصية قريبة من مؤلفها كما ازداد شغف القارئ في تتبع مفصلاتها الدلالية في النص، و ذلك لأن الأنا في الرواية حكايتي شرح يطول تتخذ لنفسها أبعادا واقعية تقربها من الحقيقة التي يبحث عنها القارئ دون كلل، ملتمسا أوجه التشابه و التطابق بين واقع الرواية و واقع مؤلف الرواية.

و يجدر التأكيد هنا بأن الشخصية السيرية تختلف من الشخصية الروائية، الشخصية الروائية كائن أدبي أو كائن بورق، والشخصية السيرية هي حقيقة كائن من لحم و دم و تنتمي لما هو حقيقي لا خيالي، و الملاحظ أن حنان الشيخ قدمت الشخصيات داخل سياقاتها الاجتماعية والواقعية، تكاد تدور في مجملها حول الشخصية الرئيسية كاملة، غير أن "ما يميز تجربة كاملة هو أنها لا تقصد الدفاع عن قضية و الانتصار لمبادئ معينة و إنما بذكائها و حساسيتها تتجاوب مع الحياة، مترجمة حبها للناس من خلال حرصها على أن تنشر المرح حولها محتفية باللحظات المضيئة وسط عتمات الاكتئاب و البؤس، و من ثم ينبض استحضارها للشخصيات بالحيوية

والمتعة، على نحو ما يطالعنا و هي تتحدث عن التي تزعم أنها بلعت فرخ الحية المستقر في بطنها" [89]و غيرها من الشخصيات المستحضرة من ذاكرة الأم التي تعد مرجعا أساسيا للحكي.

شخصية "كاملة"

قد تجاوزت شخصية كاملة تلك الأبعاد الفنية لشخصية التي وضعتها الكاتبة إلى نموذج حي التقطته قريحتها بوصفها كاملة الكائن السيري الذي يروي أحداث حياته، مستندة إلى الذاكرة المشحونة بالأحداث المختلفة المتناقضة منذ طفولتها عندما اضطرت إلى الخروج لشارع طلبا للرزق، بدلا من الذهاب إلى المدرسة هي وشقيقها كامل، إلى أن تجبر على الزواج من زوج شقيقتها المتوفاة حفاظا على يتامى أختها، و لم تحتج حنان الشيخ لكثير من المراوغة الفنية لإقناع القارئ بمصداقية هذا النموذج الحي المتمثل في والدتها، التي تحاكي بحكايتها الكثيرمن الحكايات المتشابهة "لتلامس تجربة امرأة استطاعت على الرغم من أميتها و قسوة بيئتها أن تلتقط نبضات و لحظات دالة في مسارها الخاص و في علائقها بالمجتمع المنغمر في تحولات متسارعة. لم تمنعها الأمية من أن تستوعب تعقيدات العائق البشرية وثقل التقاليد والجمود الديني" [90]

إن شخصية كاملة، ينطبق عليها وصف «الشخصية المدورة – أو المكثفة – وهي تلك المركبة المعقدة التي لا تستقر على حال، ولا تصطلي لها نار، ولا يستطيع المتلقي أن يعرف سابقًاإلامَ سينتهي أمرها؛ لأنها متغيرة الأحوال، ومتبدلة الأطوار، فهي في كل موقف على شأن. فعنصر المفاجأة لا يكفي لتحديد نوع الشخصية، إذ نرى غناء الحركة التي تكون عليها داخل العمل

---

[89] سامية بابا، مكون السيرة الذاتية، صـ 146

[90] نفس المرجع، صـ 147

السردي وقدرتها العالية على تقبل العلاقات مع الشخصيات الأخرى، والتأثير فيها، فإذا هي تملأ الحياة بوجودها، وإذا هي لا تستبعد أي بعيد، ولا تستصعب أي صعب[91].

السارد و استعمال الضمير

السارد في حكايتي شرح يطول مساو للشخصية الرئيسية. فكلاهما يمثل البطلة منذ مرحلة الطفولة حتى الشيخوخة، حيث تنتهي رحلة حياتها، ويظهر هذا الاتصال في استخدام ضمير المتكلم الذي يبرهن عن وحدة بين السارد و الشخصية الرئيسية، و تتحد علاقة المؤلفة بهذه الحكاية من خلال النص عندما تقر الساردة بعلاقتها بالمؤلفة الشرعية للنص، تقول كاملة "كلما تكلمت حنان كشفت لي عن نفسي، و عرفت أن الحاضر هو الماضي، من غير أدري أتلبس شخصيتها و أصبح هي"[92]، إن هذا التماهي الحاصل بين الكاتبة ووالدتها يجعل النص لا يفرق من هي الكاتبة، و حضور حنان الشيخ في الفصول الأخيرة للحكاية و كونها ساردة و خاصة بعد وفاة والدتها ما هو إلا برهان عن سلطتها كمؤلفة للحكاية و رواية لأحداث حميمة في حياتها.

المؤلفة و سلطة الكتابة

لا تتحرج حنان الشيخ من الكشف عن هويتها علنا أمام القارئ كونها هي التي تولت كتابة حكاية والدتها كاملة، و إخراجها في عمل فني، ويبدأ تواجد الكاتبة منذ الفصل المعنون باسمها "حنان"، حيث تولد حنان في أجواء رومانسية تجمع كاملة و محمد في غيباب الزوج الذي كان يؤدي مناسك الحج، "و ما إن عاد بعد شهرين من غير سابق علم أو خبر، حتى أسرع واضعة مولودتي حنان إلى جانب ابنة شقيقي العابس التي ولدت في غيابه أيضا، ثم اسأله: أي الإثنين

---

[91] د. عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،1998، ص120

[92] الرواية، صـ 354

ابنته؟ فيشير إلى حنان بسرعة. أظهر لي لطفي وابتساماتي خوفا من أن يعود و يبدل اسمها"[93]، هذا ما ورد على لسان كاملة التي تستعيد تفاصيل حياتها، و من تلك التفاصيل التي يتتبعها القارئ عتبات لطفولة الكاتبة، فحنان الطفلة استطاعت اكتشاف الرجل الغريب الذي كانت تلاقيه والدتها خفية، فالمشهد الذي تدعي في الأم لابنتها الطفلة حنان في رواية حكاية زهرة لحنان الشيخ بأن الرجل الذي تترد عليه هو الطبيب، يستعاد في حكايتي شرح يطول و يتم الكشف عن حقيقته بكونه العشيق، و هو بصفته عنصر من عناصر السيرة الذاتية، ذلك أن كشف الحقيقة هو الميثاق يعقده الراوي مع القارئ أو السامع و هذا ما تعهدت به حنان الشيخ أمام والدتها ثم القارئ.

زواج كاملة الأول مع أبي حسن "الحاج"

هذه الشخصية مهمة جدا، رجل شيعي ديني منشغل بالأمور الدينية ولا يهتم بقضايا تتعلق بالآخر. زوج شقيقة كاملة المتفوفاة، تزوج بكاملة وهي كانت في العاشرة من عمرها و هو أكبر منه بأربعين سنة، هو والد الكاتبة حنان الشيخ، إن دوره مهم جدا في حياة كاملة، قد سبب كثيرا من المشاكل لها و من حيث كان بخيلا لا يهتم بأمور البيت بصورة حسنة. و في الرواية الكاملة تدعوه كاملة بالحاج حيث قد أدى الحج و كان منشغلا بالدين. و حينما طلبت كاملة من أهلها لسماحها بالذهاب إلى المدرسة أرسلها الحاج إلى بيت الخياطة فاطمة للتعلم الخياطة كي تكون مثل أختها المتوفاة منيفة في إدارة أمور البيت. و الحاج قد أكمل جميع طلبات التكييع من كاملة حينما تقدمت بالتكبيعات من الدجاجات المحمرة ثم حضور السينما ثم المجوهرات و الذهب فقط لإرغامها على الزواج، بالتالي هو فاز. و أنجبت كاملة منه ابنتين فاطمة و كاملة. و في النهاية أجبره محمد على تطليق كاملة و طلقها كرها و كان يبكي في المحكمة الشرعية عندما كان يوقع

[93] سامية بابا، مكون السيرة الذاتية، صـ 160

على وثيقة الطلاق. و قد تزوج الحاج امرأة أخرى بعد تطليق كاملة، و هذا كان زواج ثالث بالنسبة له.

عشيق كاملة محمد، و زوجها نهائيا

الشاب الذي يشبه بممثل السينما، هوينتمي من قرية الجنوب، قريبة من الساحل، و سافر إلى بيروت ليتلقى العلوم في صيدا، و أصلهم أشراف و أمراء و أن عائلته "هاي لايف" و أبوه مختار الضيعة من حوالي 30 سنة، وعندهم فرسان يشغلونهم بسباق الخيل. إن شخصيته يمكن أن تعتبر ثاني أكثر مهما في الرواية بعد كاملة. حيث بعد دخوله في حياة كاملة قد نفح الروح والنشاط في حياتها. هو كان منطلق الفكر و كان يحب السينما مثل كاملة و نقيض زوج كامل الأول. عندما رأته كاملة تصوره كأنه عبدالوهاب الممثل في السينما، يرتدي ثيابا شبيهة بملابس عبدالوهاب، يتحدث عن لغة الشعر والعلم، و كانت تتعلم من محمد و تسأل منه عن كل كتاب، ليقص عليها قصة هارون الرشيد و بغداد والحواري، و عن ناس عاشوا قبل مئات السنين. وكانت شخصيته مسؤولة هو يهتم بأمور تافهة لعائلته و عندما تطورت العلاقة بينه و بين كاملة هو كان يسدي النصيحة إليها و يقترح عليها أن ترتدي حمالة، ثم يقدم لها فرشاة و معجونا للأسنان عندما رآها تفرك أسنانها بالملح والماء. و كان حسن الخلق و رزين السلوك، يحب فاطمة و حنان أيضا. و هذا هو السبب رغما من أنه سبب في انتزاع أم الكاتبة منها و أختها هي لم تقدم منافشة تشوه صورته.

لأنها كانت غير معلمة، و يعدها بأن يعلمها القراءة والكتابة بأسرع فرصة ما إن يستقر في عمله. مع مرور الأيام أصبح محمد ضرويا لها كالخبز، و يتدبران من أجل أخذ الطلاق من زوجها و في النهاية يتزوج بها و كاملة تنجب خمسة أولاد منه.

الفضاء السير ذاتي في حكايتي شرح يطول

يقترب مفهوم السير ذاتي من الفضاء الروائي، اعتبارا أن السيرة الذاتية تستعير تقنيات الرواية، إذا أنها من أقرب الأنواع الأدبية إلى الرواية بصورة عامة و إلى رواية السيرة الذاتية بصورة خاصة، فلا فرق بين النوعين في طرائق الكتابة إذا حللنا النصوص تحليلا داخليا. [94]

و بالنظر إلى النص، يمكن أن يتم تحديد عالم الفضاء الذي تتحرك فيه الشخصيات و الأشياء، مرتبطة بثلاثة عناصر أساسية هي: المكان و الزمان و الذات السيرية، و هذه الأخيرة هي التي تميز فضاءات الرواية التي تلامس الواقع الحقيقي وتقدمه للقارئ، وهكذا "يشترك الفضاء السير ذاتي مع الفضاء الروائي في كونه يشكل إطارا لحركات الشخصيات و أفعالها، و تحدد نوعية سلوك الشخصيات و أحلامها. ومن ثم تحقق هذه الأحداث و هذه الشخصيات للنص ضلاله الواقعية"[95]

الفضاء الجغرافي

يمكن تقسيم الأماكن الواردة في هذا الفضاء إلى:

1- أماكن الإقامة الدائمة: فضاء النبطية، فضاء بيت بيروت رأس النبع، و بيت محمد

2- أماكن الإقامة المؤقتة: فضاء بيت الخاطة فاطمة، فضاء مصيف بحمدون، فضاء بيت كوكو، فضاء بيت رأس الناقورة.

3- أماكن الانتقال: الفضاء الداخلي المديني: مدينة بيروت، الفضاء الخارجي العربي: فضاءات الشام، فضاءات الكويت. الفضاء الخارجي الغربي: فضاءات أمريكا.

4- الأماكن المغلقة: فضاء هودج الجمل، فضاء السينما، فضاء القبر

---

[94] نفس المرجع 157

[95] فليب جون السيرة الذاتية الميثاق و التاريخ الأدبي صـ 119 -

5- الأماكن المفتوحة: فضاء الأحياء والشوارع، فضاء شجرة الجوز.

فضاء البيت

يحمل البيت معاني السكن والاستقرار لساكنيه، فهو المكان الوحيد الذي مهما ابتعد عنه الإنسان يعود إليه عن رضا طواعية، باعتباره المكان الوحيد الذين يسكن إليه و لهذا سمي بالمسكن لتضمنه معنى السكينة، وفي هذه الحكاية، نرى كاملة في سيرتها قد انتقلت عبر عدة بيوت، وأولها كان بيت الصبا و الطفولة وهو النبطية.

النبطية التي هو كان مكانا للحلم و الطفولة البريئة، كانت تعيش مع والديها و شقيقها كامل، وهناك كانت الأسرة تعيش حياة بسيطة بين جني الثمار والتجول في الأسواق، و هي نموذج للأسرة اللبنانية البسيطة في القرن العشرين، و انعكست العفوية و البساطة على طبع كاملة منذ طفولتها حيث اعتادت أن تحلب البقرات و تجني الثمار مع والدتها، و تتجول في أسواق النبطية مع شقيقها كامل، إلى أن جاء اليوم الموعود يوم أخبرتها والدتها "تودعي، تودعي من الليطاني، بدي روح فيكم عابيروت... شو بدي عيشكم على قرص العنة و السليق والهندباء"[96]

تترك كاملة بيتها و عمرها تسع سنوات، و ذلك بعد أن اصطدمت بزوجة والدها الجديدة، وعلمت بأن ولدها تخلى عنهم، تقول كاملة الطفلة في ليلة رحيلها من مسقط رأسها "و قبل أن ننام ليلتنا وجدتني أتسلل إلى الحاكورة، و أمد وجهي لأتأكد من أن البقرات لم ترجع، لأن تفاحة أخبرتني في النهار، حيث كنت أبحث عن بيت البقرات الجديد حتى أودعها، إنما سمعت من أمها أن البقر كالحمام يهرب و يعود إلى بيته الأول"[97]

---

[96] الرواية صـ 20
[97] الرواية صـ 22

فضاء البيت في بيروت

تنتقل أم كاملة مع طفليها إلى بيروت في حدود سنة 1934، وهناك تعود كاملة لتسرد تفاصيل ترك و الدتها لأولادها الأربعة من زواجها الأول بمفردهم في هذه المدينة للمرة الأولى، وبرجوع الأم يلتم شمل العائلة فبعد أن نزلت عند ابنتها و زوجها، تتفق العائلة التي أصبحت كبيرة على شراء بيت في منطقة رأس النبع، و هناك يتحقق فضاء العائلة الكبيرة، التي يضمها بيت كبير، تقول كاملة " و كان كل من في البيت يعمل، و أمي التي كانت تساعد شقيقتي تكب على ماكينة الخياطة طوال النهار تخيط الملابس، إلى جانب تطريزها لرجل العصفورة، على المناديل الملونة و أغطية الرأس، من أجل يحملها زوجها في اليوم التالي يبيعها في الأسواق" نفس [98]

إذا كان هذا البيت هو فضاء للعائلة الكبيرة، فإنه أيضا فضاء للحرمان و النهب بالنسبة لكاملة، في كنفه حرمت كاملة من حقها في التعليم، لتقوم بأشغال البيت، و ترافق أبناء أشقائها إلى مدارسهم ذهابا و إيابا، و كذلك أصبح لديها وظيفة لبيع القبعات التي تصنعها شقيقتها. و كذلك في ذلك البيت تم الحد من حريتها، خاصة بعد أن أجبرت على الزواج مع زوج شقيقتها بعد وفاتها. و هنا يتحول ذلك البيت إلى مكان الخنق و تسعى الراوية بكل قواها للهرب منه لتنفس الحرية و تلوذ بالسينما، و ثم تلقى بقريب جارتها "محمد"، و في هذا البيت تحصل الطلاق من الزوج الأول.

بعد مرور سنوات ينتقل بيت بيروت إلى فضاء للعويل و الحزن، جراء وفاة الزوج و هو في ريعان شبابه و تركها زوجها مع خمسة أولاد، و بعد وفاة محمد تعود كاملة من جديد للعيش في بيت العائلة، و هي تقول: "أعود أعيش مع سرب النساء، كما كنت أعيش في بيت عائلتي حيث

[98] نفس المرجع 32

تزوجت، أنجبت و ترعرع حبي لمحمد. فبيتي الآن أخذ يجذب الفراشات و النحل: كل من تحمل رحيقا و كل من يريد رحيقا" [99]

بيت محمد

إذا كان فضاء البيت السابق لم يعط معنى السكينة و الطمأنينة والاستقرار للرواية كاملة، فإن بعد طلاقها زواجها مع محمد تسبب في تنقلها إلى بيت محمد، و هناك تتخذ العلاقة بينهما أبعادا شرعية، مما يضفي على نفسيتهما الشعور بالسكينة المنوط بالمفهوم الحقيقي للبيت، و على الرغم من صغر هذا البيت مقارنة بالآخر، و أيضا بالرغم من المناوشات التي كانت تتعرض لها من قبل عائلة محمد إلا أنها استطاعت تكييف نفسها مع ظروفها الجديدة، و تقول كاملة "أما الآن فعلي أن أكون ربة البيت و من طراز جديد. أشعر تحت وطأة هذه الواجبات و كأنني تلميذة علي أداء واجبي على أحسن وجه، و إلا أغضبت أستاذي. علي أن أحضر الطعام، أضعه على الطاولة لا كما كنا نأكل في بيتنا وقوفا، بعد أن نعرف من الطنجرة في الصحن كلما جعنا. على أن أضع هناك مناشف نظيفة دائما، و أن أعثر على الزر الذي وقع في قميصه، و أن أنتبه لحرارة المكواة حتى لا تحرق بنطلونة، و أن أشد على ياقة القميص، و أرش عليها الماء حتى تبدو مستقيمة. كل هذا كان عكس شخصيتي التي عبارة عن نفاذ صبر دائم." [100]

و بسبب وظيفة حكومية، محمد ينتقل إلى رأس الناقورة، جنوب لبنان. و هناك تنعم كاملة بالهدوء و تنسى في هذا المكان الرحب الهادئ المستقر كل ما تعرضت له في الطفولة، و ثم ما عانته من الزوج الأول و على الرغم من افتقادها ابنتيها فاطمة و حنان، تقول كاملة: "كانت

[99] الرواية صـ 285
[100] الرواية صـ 244

رحابة البيت المؤلف من خمس غرف نوم، و غرفتين واسعتين للاستقبال بالإضافة إلى حجرات أرضية، هي التي رسخت في ذهني مركز محمد في الناقورة." [101]

فضاء بيت حنان المؤلفة

يعكس بيت حنان صورة عن حياتها، و هو يمثل بالفعل البيت المثالي الذي طالما تمنته والدتها كاملة، لذا نجدها تصوره في إعجاب قائلة "أزورها في بيت تصدح فيه الموسيقي الهادئة، فيه القفص و الكنار ويغرد و يستحم في الطشت و الصغير. انظر الفأر في القفص الآخر الذي أتت به فاطمة إلى ابني حنان، فأراه يقفز على الدولاب و يلعب، ثم يدخل بيته، الذي فرشت أرضه بالنشارة. أرى هذا الفأر يملأ فمه بالحبوب و البرز حتى تبدوا و كأنه يعاني من "أبو كعيب"، أمازح ابنتي التي ترتدي الملابس الجميلة حتى لو كانت في البيت، و تجلس خلف الطاولة لتكتب بينما الخادمة تعني بشؤون منزلها، فأقول لها: يا ريتني هالفار. [102]

أماكن الانتقال

تمثل أماكن الانتقال "تلك الأماكن التي تكون مسرحا لحركة الشخصيات و تقلاتها، و تمثل الفضاءات التي نجد فيها الشخصيات نفساها كلما غادرت أماكن إقامتها الثانية، مثل الشوارعو الأحياء و المحيطات و أماكن لقاء الناس، و في البيوت كالمحلات و المقاهي" [103]

---

[101] نفس المرجع صـ 252
[102] الرواية 361
[103] - سامیا بابا، مكون السيرة الذاتية، صـ 167

فضاء الانتقال الداخلي

فضاء بيروت

تجري أحداث الرواية في فضاءات متعددة، ابتداء من جنوب لبنان، النبطية حيث ولدت كاملة وعاشت طفولتها، و قضت حياة صعبة، ثم تنتقل إلى بيروت مع شقيقها و والدتها، و مكان بيروت نقلة حاسمة في حياة كاملة، فمنذ أن وصلت إليها استطاعت ملاحظة الفرق الشاسع بين بيروت والنبطية واصفة إياها "نصل إلى بيروت و التي كانت أكبر من سوق النبطية، و أفكر أنها الدينا كبيرة. لكني لم أر أكياسا كبيرة تتساقط منها حبات الأرز والسكر، لم أر الناس تهجم، و تدنو بوجوهها و تأكل و تلحس الدبس من البراميل، بل رأيت أناسا آتية و غادية من غير أن تتوقف و تتحدث إلى بعضها البعض كما في النبطية... و كانت هذه البيوت مسقوفة بالقرميد الأحمر، قرميدة تلي الآخر، و كأنها لب الرمان. و ثمة نوافذ كثيرة مرتفعة تدعى الشبابيك، لا باب السر و كوى مستدير أظن أنها بيوت للحمام الذي كنت أراه بكثرة. أما أشجار بيروت فلم تكن التي اعتدت عليها، لكني حفظت أسماءها بعد أيام: زنزلخت، و لحلح، وبلح، و توت، وأكيدنيا" [104]

تتأقلم كاملة مع جو مدينة بيروت، و هناك تكسب كثيرا من العادات والأشواق، مثل الولع للسينما، و تجد الفرصة للقاء محمد، لكنها هي لا تنسى حضارة النبطية القروية المحافظة، وخاصة عندما عند ينتشر خبر حبها مع محمد و خبر خيانتها لزوجها ابي حسن، فتقول بنفسها "أجدني أشكر الله أني في بيروت، و لو أنني مازلت في النبطية و انتشر خبر خيانتي لزوجي

[104] الرواية صـ 28

وعلاقتي بمحمد لكان طاف بي أهالي النبطية في القرى و جوارها بعد أن أركبوني بالمقلوب على ظهر حمار أزعر من غير رجل"[105]

فضاء الشام

تزور عائلة كاملة من حيث كونها شيعية متدينة بالشام و تقصد خاصة بزيارة المزار الديني لسيدة زينب، و خلال هذه الزيارة هي كانت متزوجة مع أبي حسن و هو ماكان مطبوعا على زيارة الأماكن الخارجية، و تقر كاملة بنفسها" كان قد رضي لدهشتي أن نذهب إلى الشام، مصطحبا قريباته و زوج إحداهن، لزيارة مزار "ستنا زينب"، مع أنهم يكون يتمنون إلى تأدية فريضة الحج. و لم أكن الوحيدة التي استغربت قبوله هذا، بل أفراد البيت، إذ لم يكن يحب التنزه على الروشة أو في حرش بيروت" [106]

و كانت هذه الرحلة أول من نوعها للتنزه، و هي تصل إلى المزار و هي لا تترك الفرصة تفوتها للشكوى، من حيث كونها شيعية تغرب في إظهار ما في قلبها أمام مزار زينب و هي تقول أجدني أبكي و أنا أخبر الست زينب ما فعلته بي أمي و أبي و شقيقي العابس، و كيف زوجوني بزوج شقيقتي.

فضاء الكويت

في حدود سنة 1979م تضطرب أجواء بيروت نتيجة الحرب الأهلية في لبنان، فتضطر الرواية إلى السفر إلى خارج لبنان، و تصف كاملة بلسانها ما حدث معها "يأخذ الناس في الهرب والسفر، حتى تغادر ابنتاي إل الكويت و تقيمان عند أختهما الكبرى المتزوجة، فألحق بهما مع

---

[105] الرواية صـ 187
[106] نفس المرجع صـ 95

ابني الصغير الذي صار يبلغ من عمره ستة عشر عاما، ثم سافر ابني البكر إلى أمريكا، و تلحق به حبيبته، و هناك يقرران الزواج"[107]

انتقلت كاملة إلى مكان كان يختلف تماما من البيئة التي كانت تعيش فيها في بيروت، لحماية نفسها و أولادها و غير أنها لا تحب الانتقال إليها لأن البيئة هناك لا تعجبها و تنافر طبيعتها بسب طبيعتها الحرة و المرحة و هي تقول" رحلتي الأولى كانت إلى الكويت، هناك تقتل الكويت نفسيتي بقسوة طقسها، و عدم تأقلم معه، فأفتح زجاج نافذة حتى أتنفس الهواء الطبيعي، لا الهواء المكيف، و قد خيل إلي أني في المصيف حتى الرياح المولولة تأتي محملة برائحة الكروم و التين. لكني أنهض في الصباح و أنا أتشردق، فالطور و ما يحمله من غبار و رمال، قد ترك علي طبقة خفيفة بيضاء، و كأنني سمكة غطست بالطحين قبل أن ترمى في المقلى. ولما لم نكن نجلس على الشرفات، و لا نرى الرائح و الغادي، شعرت و كأن بيت ابنتي الجميل ليس إلا سجنا." [108]

الفضاء الزمني:

الرواية تبدأ من ثلاثينات القرن العشرين في جنوب لبنان عام 1932، و تصو ر حياة اجتماعية و اقتصادية لجنوب لبنان. و كاملة صغيرة كانت في الثامنة من عمرها و كامل أخوه أكبر منها بعامين و كاملة وكامل يبحثان عن أبيهما كي يشتري لهما شيئا للأكل من السكر واللحم والخبز لكن لم يجداه حيث كان يختفي عندما يراهما و هوكان يسكن في قرية مجاورة. و تأخذهما أمهما إلى المحمكمة لأن أباها لا يدفع الكلفة و كان قد وقع في الحب مع امرأة آخرة و تزوج بها و لا يهتم بأمورهم. و كانت أم كاملة متزوجة ثانية و كان زوجها الأول قد قتل على أيدي عصابة اللصوص، و كان لأمها أربعة أولاد من زوجها الأول، ابنتان و ابنان. و خوفا من الفقر أم كاملة

[107] الرواية صـ 335
[108] الرواية صـ 338

تسافر مع كاملة و كامل إلى بيروت عندما كان أولادها الأربعة يسكنون لأجل الحصول على الرزق و طالبة مصدر قضاء الحياة عام 1934.

غير أن الرواية تجري بداية من عام 1932 حتى تموت كاملة عام 2003 لكن أهم الحدود الزمنية التي تدور القصة حولها هو بداية من 1932 إلى عام 1960 يموت محمد في حادثة سيارة.

تصل كاملة إلى بيروت و بعد سنتين تموت أختها و يتم قرانها مع زوج شقيقتها و خلال ذلك تبدأ قصة الحب مع محمد، و تستمر حتى يتم تزويجها مع زوج شقيقتها المتوفاة و هي في الثالثة عشر من عمرها و بعد سنة تنجب بنتا فاطمة و بعد سنتين من إنجاب فاطمة تنجب بنتا آخر حنان الشيخ الكاتبة. و بعد سنوات عديدة هي تتزوج بمحمد عشيقها و تقضي حياة سعيدة تحلم بها منذ سنوات مع محمد.

ان الازمة اللبنانية عام 1958 اخطر ازمة سياسية واجهها لبنان في تاريخه المعاصر، تندلع الثورة في الطرقات، و تحدث مقاومة شعبية ضد رئيس الجمهورية كميل شمعون الذي كان مواليا للمغرب و مخالفا للوحدة العربية، و يقال أن رئيس مصر جمال عبدالناصر كان يريد ضم لبنان إلى الوحدة العربية إنه قام بتسليح المقاومة الشعبية وعلى رأسها صائب سلام، و كان كميل شمعون مسيحي يريد تجديد مدة رئاسته. يصبح كل من في الدولة و خاصة الشرطة والجيش والأمن العام مهددا بالقتل، و عندما يهدد محمد بالقتل إذا لم يقدم استقالته من الأمن العام، تقرر الهرب إلى منطقة مسيحية و بعده يلجأ مع عائلته في بيت شقيق كاملة العابس في

ضاحية بيروت. "و تنتهي ثورة 1958 بدخول الأسطول السادس و بانتخاب قائد الجيش شهاب رئيسا للجمهورية."[109]

في عام 1960 توفي زوجها محمد، و انقلبت حياتها و عادت المسؤولية عليها، و و هي تشتري بالتعويض الذي قدمتها الحكومة شقة تقوم بتأجيرها، لكن لم تمتنع من إرسال أولادها من المدرسة و تسد الرسوم من الراتب الشهري الذي كانت تستلم من وزارة المالية.

و كما تذكر حرب الأيام الستة في عام 1967 كانت بين الأسرائيل والدول العربية، وجرح فيها أبو كاملة و يزورها جريحا.

تعود الاضطرابات تخض بيروت في أوائل ربيع 1975 و كانت مثل اضطرابات 1958. والأحداث تتسارع و هناك قتلى و جرحى و انفجارات و مظاهرات، كان ابن كاملة الكبير الذي عاد من انكلترا أخذ يعمل في شركة طيران، و لم يتوقف عن مزاولة عمله. و يزدحم بيتها بالأقارب والمعارف الذين كانت بيوتهم على خطوط التماس في المناطق المتحاربة. "و ما إن يتوقف إطلاق النار لأيام قليلة و تأخذ الناس في الهرب و السفر، حتى تغادر ابنتي حنان مع طفليها إلى لندن، ثم ابنتي فاطمة و زوجها. ثم تغادر ابنتاي إلى الكويت و تقيمان عند اختهما الكبرى المتزوجة، فألحق بهما مع ابني الصغير الذي صار عمره ستة عشر عاما، ثم يسافر ابني البكر إلى أميركا و تلحق به حبيبته و يقرران الزواج". [110]

الفضاء النصي:

---

[109] الرواية صـ 269

[110] نفس المرجع صـ 335

يمثل الفضاء النصي ذلك الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها باعتبارها أحرفا طباعية على مساحة الورق و يشمل ذلك طريقة تصميم الغلاف، و وضع المطالع، و تنظيم الفصول، و تغيرات الكتابة المطبعية و تشكيل العناوين و غيرها" [111]

اللغة الروائية

يمكن اعتبار الفضاء النصي مكاني لا يتحدد "إلا عبر المساحة مساحة الكتاب و أبعاده، غير أنه مكان محدود و لا علاقة له بالمكان الذي يتحرك في الأبطال، فهو مكان تتحرك فيه.

تأتي اللغة الروائية لحنان الشيخ في هذه الرواية سريعة الإيقاع تتمظهر من خلال جمل قصيرة تتخللها اللغة العامية، و جمل أخرى طويلة مشكلة للحدث في سيرة الذاتية الممتدة عبر الزمن، تتخللها هي الأخرى أشكال أدبية كالشعر و أخرى غير أدبية كالأمثال الشعبية و أهازيج والأغاني.. الخ مما يضفي عليها تنوعا و على سبيل المثال لا الحصر يأتي في النص:

"تقترح الحاجة بأن يقرأ، أو تعلمنا قراءة الفاتحة، التي لا بد أن تصل إلى روح أمي و شقيقتي لا محالة، حتى من غير قبر أريد أن أطلب السماح من أمي لأمي لأني لم أجبل لها "الفراكة"

الرواية بأسلوب أدب «الاعتراف» الذي هو معروف عالمياً ولكنه غير معمم عربيا، ففي العالم العربي لا نجد كتاباً يتوخون الشفافية في الكتابة وكذلك خيانة الذات ونضمها سوى في نموذجية اثنين، محمد شكري في الخبز الحافي وهو عربي وادوارد سعيد في خارج المكان ولا يمكن اعتبار ادوارد سعيد عربياً كذلك لأنه عالمي وثقافته غير عربية. أما حنان الشيخ في هذه الرواية

[111] مكون السيرة الذاتية، سامي بابا، صـ 174

- السيرة فإنها على ما بدا من النص تمهد كتابة سيرتها الذاتية من خلال تمرنها على كتابة سيرة أمها، وهي كغيرها مطالبة بكتابة سيرة ذاتية خائنة للذات كاشفة لخباياها، بدون أي تزييف للحقيقة بحسب ما يفعل الكتاب العرب عادة. وأحسب كغيري من متابعي كتابات حنان الشيخ أنها إن قررت كتابة سيرتها فلن تكون أقل شفافية من سيرة والدتها. [112]

الأسلوب

من حيث أن الكاتبة قد اشتغلت بالجرائد والمجلات في مصر و لبنان، يغلب على كتابتها أسلوب الصحافة أيضا بأنها تكتب بجلاء و وضوح بدون الذكر بكثير من الخلفيات و استخدام المترادفات و الكلمات الجديدة. إن هذا الأسلوب قذ أزاد جمالا للرواية بأنه هذه ما كانت رواية مثل غيرها تتخيلها الكاتبة و تأتي بأشكال مختلفة للرومانسية و تأتي بالمترادفات لأجل تصوير المكان أو الزمان للقارئ تصويرا كأنه يشاهده. هذا من كمال فنها بأن القارئ لا يشعر بالملل و السئم من البداية إلى النهاية. و غير أن الكاتبة تكتب حكاية أمها لكنها لم تشعر بالخجل في التعبير عن الحوادث و الملمات والمعانات حتى لو كانت مشوهة لأمها. على سبيل المثال هي ذكرت بكل صراحة قصة لقاء أمها المتزوجة بحبيبها بكل التفاصيل و لم تتوقف هنا بل تذكر اختلاطها الجسدي و الممارسة الجنسية مع عشيقها رغما من أنها متزوجة. بسب هذا البوح والتصريح بالأمور المختفية لم يجرأ على كتابتها الكتاب الذكور فضلا عن المرأة الكاتبة قد واجهت كثيرا من الانتقادات حتى الحظر في البلاد العربية.

استخدمت الكاتبة في الرواية لغة سهلة بسيطة، و التراكيب السهلة و اللطيفة، كما أنها تطوع أساليب التعبير بما يتوافق مع ما تود البوح به. سنلاحظ ذلك في كثرة استخدام المفردات العامية،

[112] سيمون نصارى، مجلة الرياض، 27 ديسمبر 2004

في الرسائل، والأمثلة الشعبية، مما ساعدها على بلوغ مواطن هامشية وتخوم بعيدة لا يمكن بلوغها مع اللغة العربية الفصحى وحدها، وهو أمر يتفق مع اتجاه بعض النقاد إلى أن «مسألة المستويات اللغوية داخل العمل السردي تعني – في المذهب النقدي المتسامح – أن الكاتب الروائي عليه أن يستعمل جملة من المستويات اللغوية التي تناسب أوضاع الشخصيات الثقافية والاجتماعية والفكرية، بحيث إذا كان في الرواية شخصيات منوعة مثل عالم لغوي، وصوفي وملحد وفيلسوف وفلاح ومهندس وطبيب وأستاذ جامعي.. فإنه على الكاتب أن يستعمل اللغة التي تليق بكل من هذه الشخصيات» [113]

هي تكتب بشفافية و هي أولا وأخيرا امرأة مناضلة في سبيل حرية التعبير و الاختيار، وحساسة تجاه مشاكل النساء، و بنات الجيل و كما الأجيال السابقة واللاحقة. قد كتبت هذه الرواية بأسلوب صريح و لغة بليغة، و فصل يرتبط بفصل آخر، و قد اتخذت الكاتبة طريقة مشوقة للقارئ و لا يطمأن إلا أن يصل إلى النهاية. و بعد قراءة هذه الرواية تعلمت من أن كاملة جرئية و تحب الحرية و كانت تريد أن تتمتع بكل ما تتمتع الطفلة في عمرها ثم هي تتحدى المجتمع لما بلغت بلوغها. و مع كل ذلك يشعر القارئ بالعاطفة و الرحمة تجاهها.

[113] د. عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،1998، ص120

خلاصة البحث

حنان الشيخ كاتبة نسوية، كتبت رواية "حكايتي شرح يطول" سيرة حياة أمها "كاملة" قد تبدو بأنها في خطوطها العريضة عادية كحياة آلاف من الفتيات العربية، لكن الفرق بينهن من حيث التفصيلات و الأحداث و الممارسات التي حدثت معها. فكاملة منذ صغرها انحازت إلى أمها ورفضت طاعة والدها و ذلك بسبب مبرر عقلي. و في بيروت كانت تحلم أن تكون ممثلة سينما و لهذا كانت تحضر الأفلام بدون علم أفراد بيتها. و عندما وقعت في حب مع محمد لم تهتم لعواقب ذلك و انساقت في حبها و لم تستسلم لحكم العائلة بتزويجها القسري و تمردت، حتى أجبرت على الزواج عن طريق الخدعة لم تخضع لزوجها حتى اغتصبت بالقوة. رغم جميع مفاهيم العائلة و شروطها لم تمتنع من حبها و أرغمت زوجها على تطليقها و نهائيا تزوجت من عشيقها محمد.

الكاتبة تصرح بلسان أمها في آخر فصل للرواية "ها هي حكايتي كتبتها لي ابنتي حنان"، الرواية حكاية صادقة لأمها لكن الكاتبة قد نجحت في عرض معظم القضايا النسائية في هذه الرواية تقريبا، أنا أقول بالتأكيد بأن هذه الرواية تكملة لكمال حنان الشيخ في كتابة الروايات والقصص، لأن عرض و استظهار و استكشاف القضايا النسائية و بالتالي تحريضها على التحلي بالجرأة و الأخذ بالعبرة من غيرها بدون قصص خيالية و حوادث فكاهية و ممارسات صناعية يصعب استيعاب المواضيع التي تناولتها حنان الشيخ في الرواية، هذه الرواية تتناول موضوع الزواج القسري، و زواج القاصرات، و قضية الطلاق، و قضية الهجر، و اختطاف الأطفال من أمها، و قضية الحب، و قضية علاقة ودية خارج علاقة زوجية، و تعدد الزواج، و حرمان الفتاة من التعليم، و قضية الاغتصاب، و سلطة و قهر الذكور على الإناث، و بيع البنت من قبل والدها بعشرة ليرات و قضية انتحار المرأة، و تجريم الحب و معاقبة الفتاة بأيدي الجموع، و أشارت الكاتبة بأن تحميل المسؤولية على الرجال فقط خطأ لأن ارتكاب هذه

الجرائم كلها لا يمكن بدون مساعدة المرأة و في المجتمع الذي تملأه هذه الإجرامات تلد طفلة و هي ترفض إطاعة والدها و هي كانت في الثامنة من عمرها. رغم إجبارها على الزواج قسريا و هي قاصرة و إنجابها هي ما تزال تحلم بالحلوى و أساور الشمع الملونة. هي تكسر تلك القيود و ما إن تسنح لها الفرصة، لا تخاف من زوجها و لاشقيقها و تنساق وراء حب عشيقها، و تطالب من زوجها تطليقها لأنها تحلم حياة سعيدة من جديد مع عشيقها. هذه الرواية باختصار هي عبارة عن حرية المرأة و تحريرها و التمرد على المجتمع و عدم التخلي من الأحلام. و الكاتبة بطريقة غير مباشرة علمتنا الأخلاق الكريمة أيضا بأن كاملة بطلة الرواية حينما أصبحت حالتها الاقتصادية حسنة هي لاتمتنع من أي سائل أو شحاذ من مساندتهم وكانت تنفق عليهم بقلب فاخر.

والراوية التقطت هذه كلها من قصة حقيقة و شخصيات واقعية. و بالجملة، حنان الشيخ لها مهارة تامة في إنارة المرأة العربية و إضاءة حياتها و تحريضها خاصة على التساؤل عن حقوقها و حرياتها و التمرد على التقاليد. ولها دور كبير في خلق الوعي عن مكانة المرأة في المجتع، وعن نفسية الرجال ووجهة أنظارهم إلى المرأة. الكاتبة اتخذت أسلوب البوح وعبرت حدود الحرمة حسب رأئي في بعض الأماكن في بيان جزء من حادثة في الرواية و لكانت حسنة لو هي خبأتها احتراما لأمها ولم تصرح بها بكلمات واضحة مثل قصة الممارسة الجنسية، و حادثة الاستنجاء في غرفة هودج الجمل، و لكانت أروع و أكثر تأثيرا لو هي ألمحت إليها بكلمات استعارة، لكن يمكن أنها لم تخبأ بها اعتبارا بأمانة حكي حكاية أمها لتأدية حق السرد كما روته لها أمها.

و الآن أتقدم بهذه الأطروحة المتواضعة إلى مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو لنيل شهادة ماقبل الدكتوراة.

المراجع والمصادر

المصادر الرئيسية:

1- حكايتي شرح يطول: 2004، دار الآداب

2- The Locust And The Bird, translated by Roger Allen, Bloomsbury, London

3- حكاية زهرة: 2009، دار الآداب، بيروت

4- مسك الغزال، 2010، دار الآداب، بيروت

5- فرس الشيطان: 1975، دار الآداب، بيروت

6- اكنس الشمس عن السطوح: 1995، دار الآداب، بيروت

7- امرأتان على شاطئ البحر: 2003، دار الآداب، بيروت

8- بريد بيروت: 2009، دار الآداب، بيروت

9- انها لندن يا عزيزي: 2009، دار الآداب، بيروت

10- أوراق زوجية، 1988، دار الفرقان للنشر

11- انتحار رجل ميت: 1970، دار النشر، بيروت

12- عذارى لندستان، 2014، دار الآداب

المراجع:

1- قاسم أمين، تحرير المرأة، المجلس الأعلى للثقافة، إعادة الطبع الإلكتروني:2008

2-بول استاركي، الأدب العربي الحديث، نقلته إلى العربية: هند تركي السديري، الناشر: العبيكان للنشر، الطبعة الأولى: 2012
3-علي عبد فتوني، تاريخ لبنان الطائفي، الناشر: دارالفارابي، 2013
4-ابراهيم موسى، تاريخ لبنان الحديث و المعاصر، دار المنهل، 2011
5- Modern Arabic Literature, M. M. Badawi, Cambridge University Press, 1997
6-ساميا بابا، مكون السيرة الذاتية في الرواية حكايتي شرح يطول، دار المنهل، 2012
7-محمد عبده، تفسير المنار، جلد2، دار إحياء التراث العربي، 2002
8-شفيق درية، المرأة المصرية، 1900
9-عمر خالد ابراهيم، جماليات المكان في روايات حنان الشيخ ، 2004
10- إيمان القاضي، السمات النفسية والفنية للرواية النسوية في بلاد الشام 1950-1985، مطبعة المورد دمشق، 1989
11- رنا أحمد، صورة المرأة في روايت حنان الشيخ، الجامعة الأردنية، 2010
12- د, نبيه القاسم، موقع الكاتب الفلسطيني د. نبيه القاسم، حنان الشيخ تروي لنا قصة أمها في: حكايتي شرح يطول
13- فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ترجمة و تقديم: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994

14- أبو نضال نزيه، تمرد الأنثى في رواية المرأة العربيةو ببلوغرافيا الرواية النسوية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004
15- سيمون نصارى، مجلة الرياض، "حكايتي شرح يطول"الرواية-السيرة لحنان الشيخ، 27 ديسمبر 2004
16- يسرى الأمير، حوار مع حنان الشيخ، مجلة الآداب ع 7-8 بيروت 2000،
17- حسين بن حمزة، جريدة الآخبار، اكتوبر 2011
18- مودي بيطار، مجلة الحياة، دنيا المرأة، 1992
19- حوار حنان الشيخ مع جريدة الشرق الأوسط، 1995/3/21

محتويات البحث

مقدمة البحث **1-3**

الباب الأول: حنان الشيخ: عصرها و حياتها و أعمالها **4-51**

الفصل الأول: عصر حنان الشيخ، لمحة خاطفة 5-33

الفصل الثاني: مولدها و نشأتها، مؤلفاتها و أعمالها الأدبية 34-51

الباب الثاني: القضايا النسائية في رواية "حكايتي شرح يطول" 52-97

الفصل الأول: قضية الزواج و الطلاق 53-81

الفصل الثاني: قضية التمرد و حرية المرأة 82-92

الفصل الثالث: قضية التعليم للمرأة 92-97

الباب الثالث: "حكايتي شرح يطول" دراسة تحليلية **98-130**

الفصل الأول: المنهج الفني في الرواية 99-106

الفصل الثاني: الفكرة الرئيسية في الرواية 107-128

خاتمة البحث 129-130

المصادر والمراجع 131-133

A Study of Women's issues in the novel "HikayatiSharhunYatool" by Hanan Al-sheikh

Dissertation Submitted to Jawaharlal Nehru University

In Partial fulfillment of the requirements

for the award of the Degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

SUBMITTED BY

MD DANISH

In consultations with

Dr. Md. Qutbuddin

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi – 110067

2016